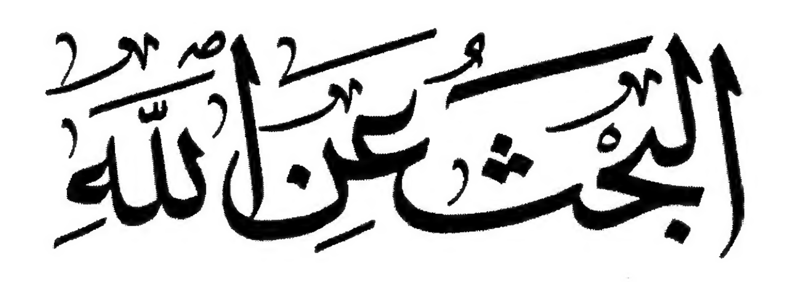


البحث عن الله

للنبيلة الإنكليزية الليدي إيفلين كوبولد

ترجمة

د. محمد أحمد خالد

تقديم

الشيخ حافظ وهبة

سفير المملكة الحجازية النجدية

لندن - ١٩٣٤

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان

ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 00961 5 952594 - فاكس: 00961 5 459982

هاتف نقال: 00961 3 388363 - 00961 3 525066 - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

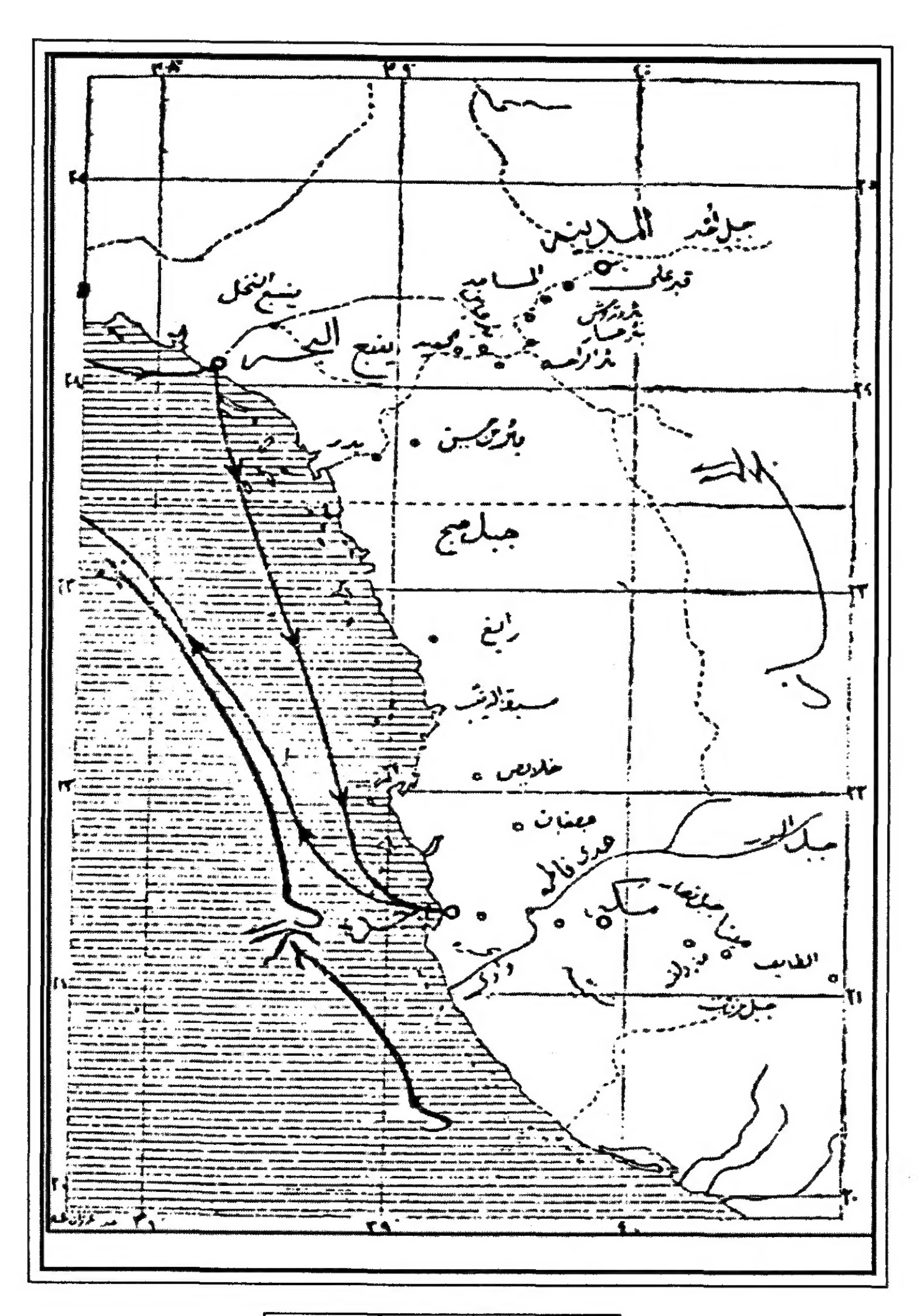
مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

البحث عن الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ * فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ * وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ * وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ .





خريطة البلاد الحجازية

جبل عرفات

اسمه جبل الرحمة، ويسميه العامة (جبل عرفات) طوله ٣٠٠ متر، وارتفاعه ٣٠ متراً يصعد إليه على حجر مدرَّج كالسلم، وأعلى هذا الجبل سطح مبلط بالحجر، مساحته ٢٠ متراً مربعاً، وفي وسطه مصطبة طولها سبعة أمتار في سبعة، وارتفاعها متر ونصف، في ركنها الغربي عمود مربع، ارتفاعه أربعة أمتار، وعرضه متران، وفي أسفل الجبل قناة (عين زبيدة).



مقدمة الشيخ حافظ وهبة

«إنه يرى من الشرف الكبير تكليفه القيام بمهمة تقديم هذا الكتاب الفريد إلى قراء الإنكليزية، لأنه سيكون مفيداً للمسلمين وغير المسلمين، فيصوّر للمسلمين هذه العواطف التي انتابت أول سيدة إنكليزية مسلمة قامت بواجب الحج إلى البيت الحرام، ويقدم لغير المسلمين شيئاً جديداً من ألوان التصوير الفني، هذا إلى ما سيقعون عليه من حقائق تتعلق بالحج وشأنه وخطره وفوائده وتاريخه، وما يتعلق بهذا كله من فوائد وعظات».

سفير المملكة الحجازية النجدية
في لندن سنة ١٩٣٤م

كلمة الناشر

أما نحن فنعتقد أنَّ هذا الكتاب فريد في نوعه، ذلك أنه ما سبق قبل اليوم لسيدة إنكليزية، وإن كانت مسلمة، أن تمكنت من الدخول إلى مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقيام بشعائر الحج والإحرام، ولا سبق أن عرضت واحدة منهنَّ إلى ما يعتور عواطفها؛ ويضطرب في فؤادها حين تعتنق الإسلام ديناً؛ وتؤمن باللّه ربًّا، وتمشي إلى البيت العتيق محرمة حاجَّة، وقد خلعت الدنيا وما فيها، واستقبلت وجه اللّه لا إلٰه إلّا هو العليُّ العظيم جلَّ جلاله.

ولعل أطرف فصول الكتاب هذا الإخلاص الذي يظهر مجسَّماً في كلِّ فصل من فصوله، ويضطرب في مختلف فقره، وشتى مباحثه، ثم هذا الاطمئنان الذي غلب على عواطف الكاتبة، وطغى على فؤادها، فراحت تطمئنّ إلى أنها قد وفقت إلى السبيل القويم في الحياة حقًّا، وأنها قريبة من اللّه أبداً، ما تتصل به بواسطة ولا سبيل، إن توجهت إليه كان ذلك لها، وإن دعته أجابها، وإن طلبته فهو في كل مكان، قريب منها، بل أقرب من أنفاسها إليها.

عرض بعض الكتاب الفرنجة من المسلمين وغير المسلمين إلى

الحج ومشاعره وأثره وخطورته؛ وذهب بعضهم يصف نزوله إلى مكة وزيارته المدينة ووقوفه أمام قبر الرسول المعظم وقفة الحب والولاء والإخلاص، والإعظام والإكبار، وقد رأينا أن ننقل ما كتبه بعض كتاب الفرنجة في هذا الشأن، واخترنا وصف كاتبين شهيرين من أبناء الفرنسيس ليكون أنموذجاً رائعاً يدلّ على تقدم الروحانية الإسلامية، وتأثيرها في نفوس الناس على مختلف أمصارهم وبلدانهم وتباعد ما بين عقليتهم وعقلية سواهم، ولندلَّ على أن الإسلام دين عالمي أرسل هدًى ورحمة لكلِّ الأمم والجماعات، وهو اليوم يسير سبيله بين هذه الأمم والجماعات، حاملاً إليها روحانية جديدة، وطمأنينة نفسية، وتفسيراً لكلِّ المشاكل العالمية الحاضرة، وهو أمر لا يستطيع سواه أن يماثله فيه أو يجاريه به.

* * *

وصف الكاتبان الشهيران المسيو رينه ورفيقه بامر، زيارتهما إلى المدينة بعد إسلامهما فقالا:

لقد كان الناس حول القبر الشريف كثيري العدد بحيث لم يكن بطوق واحدنا أن يصل إليه أو يرى ما بداخله، ولكن مزوِّرنا كان من أصحاب المقامات كما يظهر فتمكن بعد صعوبة أن يشق لنفسه ولنا طريقاً بين هذه الجموع، حتى وصلنا إلى الحواجز الحديدية المقامة حول القبر الشريف، والتي تحيط بالحجرة من جميع أطرافها، فلا تدع للناظر غير نافذة ذهبية ليرى منها ما بداخلها.

وتطلّ هذه النافذة على القسم الأعلى من القبر الشريف حيث رسول الله ﷺ مسجًّى إلى يمينه، وليس للحجرة غير باب واحد لا

فقد قال المستر وليم شد في كتابه «الإسلام والكنيسة الشرقية» ما يأتي:

«ليس في أخبار التاريخ الماضية ما يماثل سرعة انتشار الإسلام وتقدمه وتبسطه».

وقال المبشر المشهور زويمر:

«في سنة ٥٧٠ مسيحية وضعت فاطمة فتًى أسمته محمداً، وبعد مرور قرن واحد من ولادته، كان ينادى باسمه وباسم اللَّه الواحد من آلاف المنائر التي تمتد من أقصى الهند إلى المحيط الأطلانطيكي، وامتدّ دينه وتبسط في ثلاث قارات، فجرف كل شيء في طريقه وقضى على ما وجده في سبيله، فما هو السبب في هذا النجاح الفريد؟ إن لكلِّ شيء سبباً، ومن المؤكَّد أن عبقرية محمد ﷺ هي التي مكنت له هذا النجاح، وهي التي وطدت له ما أراد».

أما الدكتور غوستاف لوبون فقد كتب يقول في كتابه الحضارة العربية:

«إذا كان الحكم على الشخص يتوقف على قيمة العمل الذي قام به، فإن محمداً من أعظم رجال العالم وأبعدهم أثراً وتأثيراً».

أما كارليل فقد وجد في دعوة محمد حديثاً صادراً من قلب الإنسانية نفسها.

* * *

ولقد نهى رسول اللَّه ﷺ عن الصلاة على قبره واتخاذه مقرًّا للعبادة والدعاء؛ ذلك أن الصلاة إنما هي للواحد الأحد، والدعاء إنما يوجَّه للَّه جلَّ جلاله، ولا يستطيع عبد من عباد اللَّه مهما بلغ

يفتح إلا حين تمس الحاجة إلى ذلك من ضرورة إصلاح أو تعمير أو غير ذلك من الأمور.

وقد أخبرنا أحد علماء المدينة من الذين دخلوا إلى الحجرة في ماضيات الأيام لتغيير الكساء الذي يجلل القبر الشريف، أن القبر لا يعلو عن الأرض إلا بمقدار، وهذا يخالف ما كتبه الرحالة بوركهاردت نقلاً عن بعض كتاب العرب الأقدمين.

أما الكوكب الدُّرِّيُّ وهو الجوهرة الثمينة التي كانت معلقة فوق القبر الشريف، فقد أخذها حاكم المدينة المنورة التركي وأرسلها إلى الأستانة»[1].

ومن عادة المزوِّرين أن يتقدَّموا إلى زوّار الحجرة النبوية بالنصيحة، وأن يتلطفوا بالإشارة إلى ضرورة وقوف واحدهم بكل احترام أمام الحجرة، كما لو كان أمام الرسول نفسه، والواقع أن الحاجة ليست ماسّة إلى مثل هذه الملاحظات، فقد شعرنا نحن - المسلمين الجُدُد- بروعة الموقف الذي وقفناه، وخطورة المكان الذي نحن فيه. وعظمة الرجل المسجَّى على أرض الغرفة، وهو الذي أحدث انقلاباً في العالم لم يحدثه أحد سواه.

ولعلنا نحسن صنعاً إذا نقلنا إلى قرائنا شهادة بعض كتاب الفرنجة من الذين اشتهروا بنفورهم من الإسلام وإغراقهم في انتقاده ومقاومة انتشاره.

---

(١) ولا يبعد أن يكون ذلك بأمر من حكومة الأستانة في ذلك العهد من الغريب أن أحداً من حكام تركيا، ومن الذين كانت لهم يد في سرقة هذه الجوهرة لم يمت موتة طبيعية، فكلهم أو أكثرهم مات قتلاً، وبعد عذابات كبيرة.

مقامه عند اللّه، وعظم شأنه وفشا خطره، أن يشفع للناس عند اللّه إلا بإذن ربه، ولكن بعض المسلمين يتجاهلون هذه النظرية الخطيرة فيغرق بعضهم في التمرغ أمام الحجرة النبوية، ويغلب عليه البكاء والعويل والدعاء وغير ذلك، مما دعا الحكومة النجدية الحجازية إلى منعه، لأنه ليس من الإسلام في شيء، فعينت اثنين من جندها يقفان عند الحجرة ويمنعان الناس من مزاحمة بعضهم بعضاً، ومن الإغراق في التمرغ والمناجاة والدعاء، وهو عمل لا غبار عليه، وليس يوجد اليوم بين المسلمين من يفعل هذا، لأن احترام محمد ﷺ لا يكون بهذه المظاهر، وإنما يكون بحبه في القلب والعمل لما يرضيه ويسره.

وينام الخليفتان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في الحجرة النبوية، ولقبريهما شبّاك خاص يطل على قبريهما، وأمام الشبّاك جنديان نجديّان يقومان بالمحافظة ويمنعان الناس من التورُّط في لمس قضبان الشبّاك والإغراق في الدعاء والبكاء، ذلك أن محمداً لا يريد أبناءه بكّائين قانطين، وإنما يريدهم رجالاً عاملين، يخدمون الإنسانية، ويعملون للخير، وينشرون الحضارة والعرفان في كل بقعة من أديم هذه الأرض.

* * *

ولعمري لو التفت المسلم إلى ماضيات أيامه، لوجد أن الأرض كلها قد احتوت أجداده، فليس في الأرض رقعة ماجدة إلا وفيها جدث لعربي باع نفسه في سبيل اللّه وفي سبيل رسوله، وإنك لتجد آلاف هذه الأجداث في اليرموك والقادسية ودمشق والقاهرة

وغرناطة، وإفريقيا والصين والهند، وتحت كل أديم مشت عليه خيل الإسلام.

وإذا ما التفت المسلم إلى عربيته تمثل له المجد كله وأسباب العظمة جميعها، أولئك آباؤه الذين فتحوا العالم بالعلم والدين أكثر مما فتحوه بِشَبا الأسنة وظُبَى السيوف، وليس هنا مجال التاريخ لهذه الجماعة الماجدة، ولا كيف أدال اللّه لهؤلاء العرب أعظم دول الأرض في الشرق والغرب معاً، وكيف كفى قرن ونصف من الزمان - أي من يوم مبعث الرسول الأكرم ﷺ - كيف كفت هذه الفترة القصيرة جدًّا في أعمار الأمم، لتستحيل من تلك الأمة المتبدِّية الغارقة في الجهالة، الممعنة في الضلالة، أمة تبني الحضارة بناء، وتنشىء العظمة الإنسانية إنشاء، ثم كيف ابتدعوا في الفن وكيف استخرجوا من أسرار العلم، ولم يطل الزمان حتى كانت بلاد الأندلس الإسلامية العربية هي الكعبة التي يحج إليها الناس من مختلف بلاد أوروبا ليأخذوا علوماً، وينقلوا فنوناً، لا عهد لهم بشيء منها من أول الزمان، وكيف فتح الغرب عينيه بعد طول العماية، وكيف اهتدى إلى نهج الحياة بعد طول الغواية، وكيف خرج من بربريته بفضل ما انتهى إليه من علوم العرب، وفنون العرب، فراح يطلب الحضارة ويجهد في طلبها؛ ويعمل بكل ما اتسع الذرع لها، حتى كان منه ما نرى اليوم.

* * *

من الحق أن نضم إلى كتابنا هذا فصلاً نتناول فيه مصير

الإسلام[1] في العصور الحاضرة، وما لهذا المصير من أثر وتأثير في مستقبل العالم.

ولعل أكثر ما يلفت النظر في الإسلام الحاضر رغبته في التكيف وفاقاً للأزمنة المعاصرة، وسعيه لأن يكون أداة فعالة في تعزيز الحضارة، وتوحيد الجماعات، ونشر المعارف، وخدمة الإنسانية ما كان إلى ذلك سبيل.

وإنه لعجب حقًّا هذا الزعم الذي يحاول بعض المستشرقين الترويج له والعمل على إذاعته ونشره، من أن اللُّغة العربية بحروفها وشكلها وطريقة كتابتها؛ ليست من اللُّغات التي تساوق المدنية، وإنها إذا أرادت مساوقة المدنية والحياة، وجب تبديلها وكتابتها بحروف لاتينية كما فعل الترك بلغتهم التركية، وفي هذا الزعم ما فيه من خبال وقصر نظر، لأن الحروف العربية بشكلها الحاضر من أجمل الحروف في العالم، وليس لها مثيل في انتظام الشكل، ولطف المنظر، وحلاوة الإشارات.

وإذا كان من الحق أن نحكم على كل لغة وحيويتها ومقدرتها على الحياة بما تنعم به هذه اللُّغة من قوة على التكيف والتقدم والتبسُّط فإن اللُّغة العربية الحاضرة من أكثر اللُّغات العالمية تقدماً وانتشاراً، وهي ما تزال إلى يومنا هذا تنبسط في ما حولها من أمصار ومواطن، وليس هناك لغة مثلها مفروض على كل من يدين بالإسلام أن يعرفها ويقرأها، ليستطيع قراءة القرآن وإقامة الصلاة.

ثم إن الأمصار التي تنطق بالعربية سواء منها أمصار مصر

---

(١) هذا الفصل للمترجم ولا علاقة لمؤلفة الكتاب به.

وسورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية وسواها من البلدان في إفريقيا وغير إفريقيا، تحسّ بحيوية هذه اللُّغة وقوتها ومقدرتها على مقاومة العواصف، والوقوف في وجه كل طامع، وما الصحف التي تنشر في هذه الأمصار، والرسائل التي تصدر عن مطابعها، والكتب التي تطبع فيها، غير دليل واضح على أن هذه اللُّغة تتقدم بخطًى واسعةٍ وأنها اليوم غيرها بالأمس؛ وستكون في المستقبل غيرها اليوم.

أما اختلاف اللهجات العربية في عرض البلاد وطولها، فليس له كبير أهمية، خصوصاً وأن هذا الاختلاف موجود عند كلِّ أمة من الأمم، ففي فرنسا يختلف ابن مرسيليا عن ابن باريس في لهجته وتعابيره، وليس هذا الاختلاف بضائر اللُّغة الفرنسية، ولا هو بمانع لها من أن تكون لغة حسنة قوية عالمية.

وأظهر دليل على قوة اللُّغة العربية رغبة المسلمين على اختلاف لغاتهم وعاداتهم وأمصارهم في تعلُّمها وحفظها، وإذا كان بينهم من لا يستطيع النطق بها بإحسان؛ فإن أكثرهم يحسن قراءتها، وترتيل القرآن الكريم، خصوصاً وأن ترتيل القرآن في العربية أمر واجب لا سبيل إلى الهرب منه.

وشيء آخر أيضاً وهو أن اللُّغة العربية هي الوحيدة بين كل اللُّغات القديمة التي لا تزال حية قوية، فقد ذهبت الأيام باللُّغات القديمة من لاتينية ويونانية ومصرية وسريانية وعبرية وغيرها، ولا تزال اللُّغة العربية وحدها لغة الملايين من البشر تصدر فيها الكتب والمجلات والصحف وتعنى الحكومات الإسلامية المختلفة بتغذيتها

وتقويتها وذيوعها، وفي هذا ما يدلُّك على أنه من الخطل الاعتقاد بأنها زائلة، خصوصاً والإسلام يحميها والقرآن يحفظها، ومن أعظم من اللَّه حافظاً.

* * *

أما قوة الإسلام وشدة الإيمان به، فهذه أمور لا يستطيع أحد إنكارها، والإسلام اليوم أقوى منه في العصور السالفة، فالحجيج إلى بيت الله الحرام يزيد عاماً بعد عام، وزيادة الحجيج وحدها برهان ساطع على قوة الدين؛ وعظمة الإيمان.

وقد نحسن صنعاً إذا تركنا المبشر الإنكليزي زويمر يتكلم عن قوة الدين وعظمة الإيمان عند المسلمين، وزويمر مشهور بعدائه للإسلام، وكتابه «الإسلام» حجة ناطقة بما يكنُّه قلبه من بغض له، ورغبة في هدمه وتحطيمه[١] وقد أشار فيه إلى تقدم الإسلام السريع وعظيم انتشاره وتبسطه خصوصاً بعد الحرب، وبعد ما نال الأمم الإسلامية ما نالها من انهيار الآمال، وتقطع الأوصال **قال**:

«وقد اعتنق الإسلام في روسيا وحدها، منذ سنة ١٩٠٥ إلى اليوم ما يقرب من خمسة ملايين مسيحي»[٢].

«وآمن بالإسلام كل السودان، ويبلغ عدد سكانه خمسين مليوناً من الأنفس، وتبسط الإسلام فيها بين القبائل الإفريقية فاعتنقته قبائل

---

(١) زويمر – الإسلام.

(٢) صفحة ٢١٠.

عديدة يمتد سلطانها حتى رأس الرجاء الصالح، وتقدم الإسلام في هذه الأمصار قويٌّ شديدٌ لا يستطيع له أحد دفعاً»[1].

«ويمتد الإسلام في الهند بسرعة زائدة، فقد اعتنق الإسلام من البنغاليين عشرة ملايين نسمة، وقد زاد عدد المسلمين في (بورما) بما يقرب من الثلث في خلال عشرة أعوام»[2].

وقد أشار قنصل هولندي عاش في الهند مدة طويلة إلى تقدم الإسلام السريع فيها، وقال إن المسلمين في بعض أمصارها قد زادوا بما يقرب من خمسة عشر مليوناً في هذه الأعوام الأخيرة.

ونزيد على ذلك ما يحاول زويمر وغيره إخفاءه في كتبهم وتآليفهم، من أنِ الإسلام ليس ينتشر في إفريقيا فحسب، وإنما ينتشر أيضاً في أوروبا بلاد الحضارة والعمران والفلسفة والاختراع، وإذا لم يكن عدد هؤلاء خطيراً، فإن شخصياتهم وتأثيرهم بين بني قومهم لا ينكر خطره وأهميته، وكلهم من المتعلمين المثقفين الذين اعتنقوا الإسلام بعد دراسات كثيرة، وبعد أن وجدوا أنه أكثر الأديان طواعية وقرباً إلى العقل.

ونذكر من هؤلاء اللورد هدلي في إنكلترا؛ والمسيو كريستان شرفيل العالم الفرنسي المشهور، وأحد تلامذة أوغست كومت الفيلسوف الفرنسي المعروف، ولو أن الإسلام الحقيقي كان معروفاً لدى الأوروبيين منذ أمد طويل لكان عدد الذين اعتنقوه عظيماً جدًّا، ذلك أنه الدين الوحيد الذي يتمشى مع كل أذواق البشر وأغراضهم،

---

(١) صفحة ٢٣٥.

(٢) صفحة ٢٣٦.

فهو صوفيٌّ للصوفيين، مؤيِّدٌ للعلم والمعارف لدى المتعلمين العارفين، عمليٌّ موافق للإنكليز وغيرهم، كما أنه يستهوي الطبيب العصاميَّ الذي يجد فيه ما يدهشه من الأمر بالطهارة والرياضة والبعد عن الشهوات وكل ما يضرُّ النفس، ويقتل الجسد؛ ويجد فيه المفكر الحرُّ كلَّ غاياته، فهو يفسر له هذه القوة العظيمة التي تسيِّر العالم، والتي لا يجد العلم لها تفسيراً حتى يومنا هذا.

كل هذا تجده في الإسلام، وهو بذلك يقف فريداً وحيداً بين كل الأديان الأخرى، كما وأنه الدين الوحيد الذي يدعو إلى الوحدانية الإلٰهية، وينكر الإشراك باللَّه، وبما في السماء من قوة عظيمة عاقلة.

* * *

حسبنا ما تقدم من وصف، وما تكلفناه من بحث، وما توفرنا على تعريبه من أخبار الحج، وإيمان بعض أعلام المغرب بالإسلام، موقظاً للشعور وهادياً إلى شرف الغاية، نجماً يبعث النور في القلوب ويدفع الطمأنينة إلى النفوس، من أن اللَّه معزُّ دينه، مدافعٌ عن إسلامه، حافظ لأبنائه، شرط أن يتوفر هؤلاء على القيام بواجبهم، والإيمان بما أنزله اللَّه عليهم، والاهتداء بهدي الرسول، والعمل لما فيه مرضاته ورضاه.

وما جهود محمد بن عبد الله ﷺ في سبيل الدين وهجرته إلى يثرب، وصبره على المكاره، واحتماله للأذى إلا قصيدة من قصائد البطولة الإلٰهية، لا يفتر الدهر عن إنشادها، وما تبرح الأيام تتغنى بها، وتبتهج بذكراها، قصيدة استمدّت وحيها من روح اللَّه،

ونسجها من خلق الرسول؛ وسيرها من بطولة العرب، واستقرَّت في مسامع الأجيال مثلاً مضروباً لقواد الإنسانية، ورسل اللَّه؛ يلهمهم الصبر على مكاره الرأي، والاستمساك في مزالق الفتنة، والاستبسال في مواقف المحنة، والاستشهاد في سبيل المبدأ والاعتقاد الصادق بفوز الحق وخذلان الباطل.

وقد بلَّغ الرسول ما أنزل إليه من ربِّه، وقد تألَّبت عليه جهالة العصبية، وحماقة الترك وسفاهة الحسد وعداوة المنافسة، وحرمان الفقر، وخذلان القلة، وقيام أكثرية قومه عليه وحربهم له، وكيدهم لمريديه وأنصاره واعتزامهم قتله، فما استكان ولا وهن، ولا خشي وخاف، بل راح يدعو قومه إلى اللَّه، وينذرهم عاقبة أمرهم، متحملاً في سبيل دعوته هذه ما لا يستطيع بشر من الناس أن يتحمله، حتى كان أمر اللَّه، فأثمر صبره وصدقه وإيمانه ورجولته دعوة جارفة؛ ذهبت بما أمامها من وثنية وحزبيات وعصبيات، وإذا الجزيرة كلها من مشرقها إلى مغربها تؤمن باللَّه ورسوله، وإذا بها بعد سنوات تقتحم العالم، وتمتد إلى أقصى المعمور.

* * *

وكذلك استقام الأمر للإسلام، وأصبح دين العالم والحضارة والثقافة في عهده، وظل شأنه هذا فاشياً خطيراً ما ظلَّ أبناؤه يتمسكون بهدي الرسول وسيرته، فلما تبدلت الأيام، وتغير الناس تغير الدهر وأظلمت الدنيا، فإذا بحكام العالم يصبحون أذلاء مستعبدين، بعد أن كانوا أحراراً حاكمين.

والواقع أن المسلمين قد فقدوا مركزهم العالمي منذ قرون خمسة وأصبحوا حيث حلُّوا عنوانَ الذلّ والعبودية، وحلفاء الفقر والمسكنة ولم يكن تأخرهم راجعاً إلى بيئتهم كما يذهب بعض الباحثين، فهم يسكنون بيئات تختلف حرارة وبرودة، وتختلف خصباً وجدباً، تختلف جفافاً ورطوبة، وهم مع ذلك في مستوى واحد من الضَّعة والتأخر، ولو كان الأمر يرجع إلى البيئة ما استقام للمسلمين في بيئاتهم هذه تقدم سابق وحضارة سالفة، ولكن الواقع هو في عدم أخذ المسلمين بالحضارة الحاضرة، والمعارف والعلوم كما يوجب ذلك عليهم دينهم وكما يدعوهم رسول اللّه دعاء حارًّا إليه؛ وإذا أضفنا إلى ذلك استكانتهم إلى حالهم المرهق، وسكوتهم عن الأخذ بيد المخلصين المفكرين فيهم، واختلافهم شيعاً فيما بينهم، ورضاهم بالذلِّ والحرمان، كل هذا وغيره كان من الأسباب الفعالة في تأخر المسلمين وانحطاطهم؛ وتقدم غيرهم عليهم وسبقهم إياهم.

لقد وقف المسلمون منذ قرون عديدة لا يتقدمون ولا يتأخرون، وظل غيرهم سائراً مسرعاً، ونام المسلمون، وغيرهم أيقاظ، فلما بدأوا ينتبهون رأوا الشقة بعيدة، واللحاق يتطلب عزماً قويًّا وجهداً بالغاً، وكان وقوف المسلمين عامًّا في كل فروع الحياة وألوانها، وقفنا في أمور الدين والاستعداد للنوائب والمستقبل، ووقفنا في ما يتعلق بالعلوم والمعارف، وركدنا في ما يتصل بالمخترعات الحديثة والبحوث العلمية، وأبينا النظر في الحياة الحاضرة. بما يختلف عن نظر أجدادنا لها، ورحنا نكتفي بما تركه لنا السلف، وما تركه السلف إن كان نافعهم في ماضيات أيامهم،

فهو مختلف كل الاختلاف عن أغراضنا وأمانينا في حاضرات الأعوام.

لذلك وجب على المسلمين أن يتكيَّفوا وفاقاً لمقتضيات الزمن الحاضر، وأصبح من الحقِّ عليهم أن يعملوا مع العاملين، ويسعوا مع الساعين ويدأبوا مع الدائبين، للوصول إلى الحلقة المفقودة التي أضعناها بتهاوننا ونومنا وركودنا، والنشاط الحاضر الذي أخذ يدبُّ في الشرق الإسلامي، يدلُّ دلالة واضحة على أن هناك ثورة فكرية قوية، وروحاً دينية سامية أخذت تغمر أفراد المسلمين وجماعاتهم، وأخذت تدفعهم إلى التيقظ بعد أن تكاثرت عليهم القوى وغلبهم الضعف، ومسَّهم الضرُّ في كل بلد من بلدانهم؛ ومصر من أمصارهم.

* * *

إن الإسلام لن يموت، ولن يموت دين يضطرب في كلِّ ألوان الحياة وأغراضها، وهو سيعود سيرته الأولى، ولكن عودته هذه يجب أن لا تظلَّ حلماً من الأحلام، بل من الحق والواجب أن تضطرم في شيء من السعي والعمل، ولا أقلَّ من طلب العلم، والرجوع إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاتحاد والاتفاق، فإن الذئب إنما يقتحم من الغنم الشاردة، وليس له يد على الجماعة، وكلُّ أملنا أن يطَّرِد التاريخ بعد اليوم وأن تندفع جموع المسلمين إلى العمل لما فيه رضوان الله وتقدمهم، نعيد بذلك زمن هارون الرشيد لمّا راح يخاطب السحابة وقد مرت به:

«أمطري حيثُ شئتِ فسيأتيني خَرَاجُكِ».

الناشر

مقدمة المؤلفة

«إذا كان هذا هو الإسلام - كما هو مسطور في تعاليمه ومعتقداته - فكلنا مسلمون».

غوتي فيلسوف الألمان الأكبر

«نعم إنَّ كلَّ فرد ينعم بهذه الحياة الخلقية فهو مسلم، يحيا وفاقاً للتعاليم الإسلامية».

كارليل كاتب الإنكليز الأشهر



سألني كثيرون كيف ومتى أسلمت؟؟[1]

وجوابي على ذلك أنه يصعب عليَّ تعيين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي، فارتضيت الإسلام ديناً.

ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى.

وليس هذا غريباً إذا ما راح المرء يفكر بأن الإسلام هو الدين

---

(١) هذه الرحلة بدأت سنة ١٩٣٣م.

الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه، ولم يفرض عليه أبواه الدين الذي يعتنقانه فرضاً.

ألم يصفه أحد مشاهير النقاد في أوروبا: «بأنه دين العقل والإنسانية»؟

وإني لأذكر أيام طفولتي، وكيف أني صرفت الشتاء مع والدي في قصرٍ عربيٍّ في الجزائر؛ مشى والدايَ إليه ينشدان فيه الشمس والراحة والطمأنينة.

وأذكر كيف أني كنت كثيرة الرغبة - وأنا ما أزال طفلة - في الذهاب إلى المسجد مع بعض الرفاق، استمتع بما يغمره من حياة روحية لطيفة رائعة، ولعمري لقد كنت مسلمة منذ ذلك العهد، وإذا كان هذا مما لم يَدُرْ في خَلَدي، ولا ألقي في روعي، في تلك الماضيات من الأيام.

وإني لأذكر أيضاً مغادرتنا الجزائر، ولا أزال أتمثل ما غمرني من أسف وتولّاني من كراهية، ولكن ذلك كله كان قصير الأجل، ثم تناسيت مع الأيام، أصدقائي المغاربة، وصلاتي في المسجد، وذهبت الأيام بما كنت قد تلقنته من مبادىء العربية الأولى.

وتمضي السنون وتكرُّ الأشهر والأعوام، فأنزل عاصمة الرومان سائحة زائرة، فيسألني مضيفي في صباح يوم من الأيام، إذا كنت لا أرى في زيارة قداسة البابا من بأس، فيغلبني الفرح، ويتولاني من السرور الخير الكثير، وأسرع إلى غرفتي أضع على جسمي من الملابس ما هو بعيد عن التأنق غريب عن البهرجة.

فلما مثلنا بين يدي قداسته تلطَّف فسألني عن شأني وفيما إذا

كنت من الكاثوليك الإنكليز؟ فأسقط في يدي أول الأمر، وتولاني من الذهول شيء كثير، ثم نفضت الجواب، فإذا به: إني من المسلمين.

ولعمري ما أزال أحار في الحافز الذي دفعني إلى هذا الجواب وقد كنت في ماضيات الأيام، وبعد عهد الجزائر ما أعلم أنني رحت أفكر بالإسلام، أو ما يتصل به في كثير أو قليل.

ومهما يكن السبب، فهذا نور جديد أضاء لي ما أمامي، فكان من الحقّ عليَّ أن أقرأ كلَّ ما يتعلق بهذا الدين الذي ارتضيته لنفسي بسبب قريب أو بعيد.

ورحت أقرأ ما شاء اللَّه أن أقرأ، فكنت كلما أمعنتُ في القراءة، وأغرقت في التقصِّي والبحث والاستطلاع والمعرفة زاد إيماني واعتقادي بأن الدينَ الإسلاميَّ أكثرُ الأديان طواعيةً وعمليةً وقرباً من العقل، وأنه الدين الوحيد الذي يستطيع تفسير النظم المعلقة الحاضرة، والبلوغ بالإنسانية إلى ما ترتجيه وتطلبه من سلام وطمأنينة.

وما أعلم حتى اليوم أنني بدلت من عقيدتي هذه حرفاً، فإني أؤمن الإيمان كلَّه، بأن ربَّ هذه الكائنات والعوالم واحد فرد، وما موسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء غير رسله وعباده، وأنه سبحانه وتعالى قد أرسل لكلِّ أمة رسولاً، وأننا لم نخلق في المعصية، ولسنا بحاجة إلى أن يضحي شخص بنفسه في سبيلنا، ولا أن يكون وسيطاً بيننا وبين ربنا، الذي نستطيع التقرب إليه في الوقت الذي نشاء، كما أنه ليس هناك من يشفع لنا عنده إلا بإذنه، وأن خلاصنا متعلِّق بنا، وأنَّه بيدنا.

والإسلام كلمة تعني التسليم لله، وهي تعني السلام أيضاً، ويعرف المسلم بأنه الرجل الذي يسير في حياته وفاقاً لمشيئة خالقه وأوامر ربّه؛ والذي يعيش بسلام مع الله وعباده.

ولعلَّ أجمل ما في الإسلام ما يضطرب فيه من وحدانيَّة إلٰهية، وأخوَّةٍ إنسانية، وخلوِّه من التقاليد والبدع؛ والتصاقه اللُّصوقَ كلَّه بما في الحياة من أمور عملية.

ولقد سئل محمد ﷺ يوماً عن الإسلام.

فقال: إطاعة الله ومعاملة الناس بالإحسان والإنصاف.

وسئل مرة أخرى عن المسلم؟

فقال: المسلم من سلم الناس من يده ولسانه.

والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبداً.

وهذا ما يجده المرء مردَّداً في القرآن غيرَ مرة في مختلف سوره وشتى آياته.

* * *

ولقد فرض الإسلام الحجَّ على المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فالمريض معذور والفقير كذلك، والمستعبَد أيضاً، ويشترط في الحج أن تكون الطريق إليه خلواً من الخطر، لا ينتظم فيها مرض ولا ظلامة.

أما الحج نفسه فليس من ينكر كبير شأنه وعظيم خطره، وما يغمر النفس فيه من انطلاق إلى المثل الروحية العليا، وانفلات من

أعراض الدنيا، والتوجه إلى اللّٰه بقلب سليم، مع هذه الألوف المؤلفة من البشر على اختلاف أمصارهم، وتباعد لغاتهم، وتعدد مشاربهم وأذواقهم، يأتون من أقصى الأرض، ويتحملون في طريقهم من المشقات، واضطراب السبل، وبعد المسافات ما ليس بالإمكان تقديره ولا تصويره؛ وكل ذلك ليقفوا في صعيد واحد أمام اللّٰه جلَّ شأنه، يتقدمون إليه بقلوب صافية، وأفئدة ملتهبة، ودموع جارية، مما ليس له مثيل في العالم كله، ولعمري إنَّ في زيارة هذه الأرض التي نشأ فيها محمد ﷺ، ودعا إلى عبادة اللّٰه وحده على أديمها، وتعذَّب وعذِّب؛ وأوذي، وحورب، في سبيل دعوته هذه لما يعيد ذكرى التضحيات الهائلة التي لقيها والأهوال التي عاناها، ودعوة البشرية إلى هذه الأرض مرة في كلّ عام، يعيد هذه الذكريات ويغذيها، ويقرب الناس إلى اللّٰه جلَّ جلاله، ويزيد في نور هذه الشعلة الإلٰهية التي أنارت العالم كله.

ومن فوائد الحج أنه يوطِّد الوحدة الإسلامية ويغذي الأخوة التي أنشأها محمد ﷺ ودعا لها، وهو يدعو المسلمين في كل عام مرة واحدة إلى التعارف والتقارب، والتحدث إلى بعضهم بعضاً، يتعرف المسلم بواسطته على أحوال إخوانه في الإسلام، وشأنهم وأمورهم وأحوالهم، ويذكرهم بأنهم إخوان وأنه لا فرق في الإسلام بين أبيض وأسود وكبير وصغير، فإذا انتهوا من واجباتهم الدينية، أخذوا بأطراف الحديث في ما يتصل بتجارتهم ومعاشهم، وقصصهم وأخبارهم، وآدابهم وعلومهم، فالحج والحالة هذه ليس فرضاً دينيًّا فحسب، وإنما هو إلى ذلك كله، جمعية أمم عظمى، ومجامع مختلفة في الفن والأدب والتجارة والسياسة وغير ذلك من ألوان الحياة.

ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الخطيرة الأستاذ سنوك فقال: «لقد سبق الإسلام الحكومات الأوروبية في التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقرَّه من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع إلى الحج سبيلاً، ولعمري إن هذه الديموقراطية والأخوة التي أقرَّها الإسلام وجعلها عامة بين أتباعه لممّا يخجل الجماعات الأخرى التي لم تفطن لها ولا دعت إليها».

وكتب السر توماس أرنولد يقول: بعد أن عرض للحج وفوائده؛ وأشار إلى هذا التقارب بين الإفريقيّ واليمنيّ والهنديّ في هذا الأديم العربي من الأرض:

«وفي هذا الوقت الذي يقف فيه هؤلاء الجماعات يتوجهون بقلوبهم وعواطفهم إلى الله، يتوجه بقية المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى البقعة التي يقف فيها هؤلاء، وهم يغبطون إخوانهم على ما توفر لهم من ثواب الحج، يصلّون ويدعون، حتى إذا انتهوا من صلاتهم راحوا يعبدون ويذكرون اللَّه، ويشكرونه على ما أنعم عليهم من خير؛ وما تولَّاهم به من رعاية».

* * *

ولقد عرضت في كتابي هذا إلى بعض الواجبات التي يصار إلى القيام بها في الحج، وهي واجبات ليست من جوهر الإسلام في شيء ولكنها تعيد إلى الذاكرة حياة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكيف عطف الله على إسماعيل وأمه في هذه البقعة المنقطعة عن العمران، وقد قال أحد المستشرقين: إنها تعيد إلى الذاكرة بعثة العرب ونشوء هذا الشعب.

وأما أهمية هذه الواجبات في الإسلام، فإن في الآية الآتية تفسيراً لها وتعريفاً بها:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ * وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ * وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ * وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ * وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾

سورة البقرة ١٧٦

البحث عن اللَّه



ـ ١ ـ

في حمى الإسلام

٢٢ شباط

روَّعني انطلاق القطار وهو يسير الهوينا على قضبانه الحديدية عائداً إلى القاهرة، فانطلقت عيناي تعدو خلفه، وقد خيل إليَّ أنني أصبحت لوحدي ونفسي، وأن ما ربطته من صلات في ما سلف من أيام مع أصدقاء ينزلون القاهرة داراً قد تقطعت وأصبحت أثراً.

وإنه لعسير عليَّ حقًّا أن أنكر حبِّي لمصر، وولعي بالاستمتاع بما فيها من خمائل ونخيل، ولكنها الجزيرة العربية تدعوني إليها، فلأتقبلنَّ الدعوة، ولأرحبنَّ بها، ولأنتظرنَّ القطار الذي يُقِلّني إلى السويس حيث أركب البحر منه إلى جُدَّة.

ولعمري لئن مسَّني الضُّرُّ، وأخفق مسعاي، وحمل إليَّ المستقبل ما أخشاه، ورفض الطلب الذي أنفذته إلى مليك الحجاز ونجد، أطلب فيه السماح لي بالحج إلى مكة والمدينة، فلتكثرنَّ كآبتي، ولتتهدمنَّ آمالي؛ ولأمشينَّ إلى القاهرة كئيبةً، أمضي فيها أياماً، ألطِّف فيها من لوعة الكآبة، وانقطاع الآمال؛ وانهيار الأحلام.

ولكن الغيب لمّا ينضح بسرّه، ولا تزال نفسي تضطرب في كثير من الخوف والإشفاق، وفي مثلهما من الأمل والرجاء.

وبعد فإنه ما تزال عندي بقية من وقت تضطرب في ساعتين من الزمن، فلأزورنَّ صديقاً قديماً عرفته إبَّان الحرب العامة، لعلّي أستأنس بلطفه، وأستمتع بلطيف خلقه وكريم أعراقه.

وصديقي هذا شيخ مسجد التوفيقية، فمشيت إليه في غرفته التي تلي المسجد الذي يقوم بخدمته والتدريس فيه، فلما أشرفت عليه عرفني وعرفته، فهبَّ مستأنساً باسماً محتفلاً.

واستأنس بنا المقام، فأخذنا بأطراف الحديث، فقصصت عليه شأني، وقصّ عليَّ ما سبق من شؤونه، وقال وهو يحاورني بلهجة العاتب:

■ لو نفضتِ إليَّ الخبر برغبتك في الحج قبل أيام لتعهدت أموري، وتلطفت في شؤوني، وركبت معك البحر إلى بيت الله الحرام.

فشكرته بما وسعني من مقال. ولما أذنتْ ساعة الرحيل وقمت أودِّعه، أبى إلّا أن يتكلف مرافقتي إلى المحطة، وزاد ندًى فتقدم إليَّ ببعض الحلوى والفاكهة، فتقبلتها شاكرة حامدة.

* * *

القطار يغصُّ بالمسافرين، والحديث من حولي متَّصل، يخلص إليَّ بعضه، ويفوتني كثيره، والهواء شديد ثائر يذري رمال الصحراء يميناً وشمالاً، بحيث كان يصعب على المسافر أن يفتح نافذة القطار أو يطلق البصر إلى ما حوله من أديمٍ وقرى.

وصلنا أخيراً إلى السويس، فنصحني بعضهم بالذهاب إلى (بورت سعيد) حيث وجدت الباخرة الإيطالية التي حجزت غرفة خاصة لي فيها، وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى دائرة الجوازات لأتمم ما ينقصني من معاملات، فإذا بهم يسألونني فيما إذا كنت قد تطعَّمت منذ مدّة قصيرة، فلما أخبرتهم أن ذلك كان منذ سنوات خمس، أشاروا عليَّ بلزوم التطعُّم من جديد، وصار تطعيمي فعلاً ضد مكروبي الجدري والكوليرا.

وكان موسم الحج قد بدأ، وأخذ الحجاج يتقاطرون من أوطانهم وأمصارهم، فرحت أطلق البصر إلى من كانوا يتطعَّمون منهم، فإذا بينهم بعض الصينيين، وإذا أثر التطعيم عليهم خفيفٌ جدًّا بحيث كان ما يطفر من دم حول الطعم قليلاً لا يكاد يذكر، فرحت أشكو أمري إلى الطبيب أقول له: «إنه قد اشتدَّ في تطعيمي بأكثر مما يشتدّ به مع سواي، وإن ما نزل من دمي أغزر مما نزل من دم غيري».

فكان جوابه: إن الذين يعيشون في الشمس أقل دماً من أولئك الذين لا يرون الشمس إلا غراراً.

ولما رجعت إلى الباخرة وجدت بين المسافرين إلى الحجاز شخصين جديدين، السر أندرو رين المفوض الإنكليزي في جدة وباشا مغربي يقصد مكة لأداء فريضة الحج.

* * *

٢٤ شباط

لقد صرفت البارحة شطراً من النهار على جسر السفينة، وأما اليوم فقد انتحيت مع السير أندرو ناحية من الجسر تولاها الظلّ

ببعض العناية، وأما الباشا المغربي فكان لا يخرج من غرفته إلا لماماً، فكانوا يحملون إليه أطباق الطعام، ويقوم بخدمته أحد الأتباع الذين كانوا يقومون على راحته، فلما رأيته صباح هذا اليوم وحده، تقدمتُ إليه ورحت أحاول التمرُّن معه على ما أعرفه من العربية، فلما ذهبت دهشته، أخذ بأطراف الحديث معي، وراح يحدثني عن نفسه، وكيف أنه يقصد البيت الحرام للمرة الأولى في حياته، وسيزور المدينة، فإذا انقضى الموسم ركب البحر إلى باريس لزيارة صهره إمام جامعها.

لقد وصلنا إلى القصير بعد ظهر هذا اليوم، وأمضينا فيها عدة ساعات، حملت السير أندرو في أثنائها على مغادرة السفينة إلى المدينة لاستكشاف ما فيها من آثار وحياة.

* * *

٢٥ و٢٦ شباط

تلطف قبطان السفينة البارحة فدعاني والسر أندرو إلى زيارة السفينة، وكانت السماء صافية، والجو معتدلاً، وكان البحر هادئاً يداعبه نسيم خافت خفيف، تنزلق السفينة فوقه في دعة وطمأنينة، وكان السفر وأكثرهم من المسلمين قد خلعوا إلا أقلَّهم ملابسهم العادية وارتدوا ملابس الإحرام، وكانوا إلا أقلهم من الطبقة المتوسطة التي تقتصد الدرهم بعد الدرهم تتوسل به لزيارة البيت الحرام. والقيام بواجب من أشد الواجبات في الإسلام خطورة وأهمية.

لقد وصلنا إلى جدة بعد ظهر اليوم وبعد أن قضينا أربعة أيام في

البحر، وقد وقف المسافرون على ظهر السفينة يطلقون أبصارهم إلى الأراضي المقدسة، وإلى ما ينبعث من جدة، ونحن ما نزال بعيدين عنها من جمال وطرافة.

وأعود أنا إلى نفسي، فأذكر أني أواجه بلاداً لا أعرفها، وأن غايتي من القدوم إلى جدة، انتظار الأمر بالسماح لي بزيارة الأراضي المقدسة، وقد تلطف المستر فيلبي وزوجته فدعياني إلى ضيافتهما، والمستر فيلبي كما هو معلوم ومعروف قد اعتنق الإسلام، وارتضى الإقامة في جدة، وهو من أشهر الروّاد في العالم، فقد قطع الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، وتمكن من زيارة (الربع الخالي) وكتب عن زيارته هذه كتاباً يعدُّ حجة في عالم المشرقيّات.

ومضت السفينة في طريقها، ومضى السَّفْرُ فيما كانوا فيه من صلاة وحديث، ومن خشوع وورع، حتى ألقت مرساتها بعيدة عن المرفأ بما يقرب من ميل واحد، وإذا بزوجة «المستر فيلبي» تستقبلني في زورق نقشت على رايته كلمة: «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه» فشعرت عندئذ أني في البلاد العربية حقًّا، وأني تحت راية الملك عبدالعزيز آل سعود.

هذه جبال الحجاز تبدو أمامي، وقد ارتفعت أصوات السَّفْرِ المحرمين من حولي، بالتهليل والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيج التلبية للعليِّ الكبير، وظهر الابتهاج على الوجوه لوصولهم إلى أطهر بقعة وأقدس مقام.

أما ميناء جدة فإنه عجيبة من عجائب الزمان، وليس هناك مياه

بحر تشابه مياهه في البهاء واللمعان، ولكنه إلى ذلك كله كثير الصخور، كثير الجبال البحرية بحيث كان قواد البواخر التي ترسي في هذا الميناء لا يتقدمون من المرفأ إلا بمقدار.

وكان على الزورق الذي أقلّني من الباخرة أن يسير ما يقرب من ميل واحد، فأخذ سبيله في البحر مرحاً، وزاد في عجبي ما رأيته من براعة البحّار ومهارته، وهو بعد صبيٌّ ما أظن أنه يجاوز العاشرة من عمره، وكان من الحذق والمهارة في تسيير الزورق بين هذه الصخور والأخاديد، بحيث كان يرى الحفر تحت الماء فيدور حولها، ولا يقع عليها، وكان بارعاً في محاورة الصخور المختفية، والروغان عنها، حتى أوصلنا إلى المرفأ سالمين مطمئنين.

* * *

٢٧ شباط

نهضت باكراً من فراشي، أستمع إلى صوت المؤذن، من منارة المسجد الصغير القريب من بيت المستر فيلبي.

وكأن صوته يذكرني ثانية بأني في حمى الإسلام، وهو يدعو الناس عالياً إلى اللّه، ويقول:

- اللّه أكبر، لا إله إلا اللّه... الصلاة خير من النوم.

ولعمري إن في صوته لطرافة رائعة، وإن في دعوته لما يثير العواطف، ويرقص القلوب.

ومن المعلوم أنه لا كهنوت في الإسلام، وليس هناك واسطة بين المسلم وربه، فالمؤذن والإمام والشيوخ والفقهاء يقومون بواجباتهم الدينية كما يقوم غيرهم من المسلمين؛ فإذا انتهوا من

ذلك تفرغوا لشؤونهم العامة ومصالحهم الخاصة، وتجارتهم الرائجة، كما كان الحال عهد الحواريين، فقد كان جامس صياداً، وكان بول عاملاً يصنع الخيم، وفي هذا ما فيه من جلال ورفعة، فلا يضطر خدمة الدين إلى العيش من فضلات الناس وهبات الأفراد، بل يعيشون من عملهم، ويصرفون من أموالهم، وأما إعالة الجوامع والإنفاق عليها فتؤخذ من الأوقاف الخيرية المخصصة لذلك، والتي أرصدها أهل البر والإحسان من المسلمين.

ولقد نهى الرسول ﷺ عن تجميل المساجد؛ والإغراق في الإنفاق عليها، لكي تظل بيوت اللّه ساذجة رائعة في سذاجتها، ولا تزال كثير من المساجد تستمتع بهذه السذاجة، ولكن هناك مساجد قد أسبغ الفن عليها ما عنده من جمال وتجميل، فإذا هي آية في الإبداع والإتقان، وإذا كان هناك من يطرب لمثلها بين المسلمين، فإن كثيرين يفضلون السذاجة والبساطة على الإتقان والزخرفة، ولعمري إن البساطة في بيوت اللّه، لأكثر في النفس وقعاً، وأبعد أثراً، أما قلوب المسلمين فإنها أبداً متطلعة إلى المسجد الحرام، وكل أملي أن يكرمني اللّه بمشاهدته؛ وأن يسمح لي بزيارته.

* * *

٢٨ شباط

إن الملك عبد العزيز آل سعود اليوم في الرياض، ولا أزال بانتظار الجواب الذي أنفذه له سفيره في لندن بشأن السماح لي بالحج وزيارة مكة والمدينة، وإلى أن يصل إليَّ جوابه، فلا بد لي من قضاء أيام في جدة فلأصرفنها في التلهِّي بمناظرها وما فيها من جمال وروعة.

لقد خرجت اليوم بالسيارة إلى خارج المدينة، فكنت أشاهد كثيراً من الحجاج يضربون في الأرض نحو مكة، وا لهف نفسي متى يكون لي مثل حظهم، لقد حدثني بعضهم أن هناك أشخاصاً ركبوا نعالهم عامة سنتهم، حتى وصلوا إلى الأرض المقدسة، وأن هناك غيرهم يفضلون المشي على الأقدام نحو البيت الحرام، يغمرهم الخشوع، وتجلِّلهم التوبة، ويدفعهم إلى هذه المشقّات حبهم لله ولرسوله.

ـ ٢ ـ

الانتظار الصامت

١ مارس

لقد وجدت الحياة في جدة تختلف عن مثلها في غيرها من البلاد الشَّرقية، ذلك أنها حياة عربية خالصة، لا تضطرب في شيء من ألوان المدنية الحاضرة، فلا مقاهي ولا مسارح؛ ولا ما يتصل بذلك ويتعلق به.

وفن العمارة في جدة جميل فتان، وأهلها يستعملون حجارة المقالع القريبة من المدينة للبناء وغيره، وأما الخشب فإنهم يستجلبونه من جافا، لأن جدة لا أشجار فيها.

هذا ما كان من تأثير جدة على خاطري، فأمّا البلدة فلا بأس بها، ولا يوحش الداخل منظرها، نعم إن بناءها لا يزال كأنه من القرون الوسطى، ولكن بناء القرون الوسطى ليس كله منبوذاً وقد بدأ المهندسون العصريون يقلدونه، ويرجعون إلى كثير من ألوانه ونماذجه. وأسلوب البناء فيها ليس مما يستهجن بل هو طريف رائع قد ولع كثير من الأوروبيين بمدحه والإشادة به.

وليست الحرارة في جدة فوق ما تتحمله النفس، حتى الذي لم

يتعود الحرّ، لأن هواء البحر يرطب جوَّها ويخفف من سموم الصحراء، وذلك بخلاف مكة التي حرُّها شديد قويّ.

وبيت المستر فيلبي من أجمل بيوت جدة وأوسعها، وحمامات المنزل من الطرافة بالمكان الأرفع، ولعمري لتجدن الغربية في الحمامات الشرقية، جمالاً لا تعهده في مثلها في أوروبا.

* * *

٣ مارس

خرجنا اليوم بالسيارة إلى خارج المدينة، فأحزنني جدب الأرض وقلة الماء فيها، ولكن أحد المهندسين الأميركيين يقول: إنه بالإمكان حفر الآبار في الجزيرة، ولعمري لئن وُفِّق إلى ذلك، فإن الجزيرة العربية تصبح جنة من الجنان.

ومن المؤكد أن فيها ألواناً من المعادن، وأما مساحتها فتقدَّر بمليون ميل مربع، لا يزرع منها إلا خمسها، ولكن أهلها يكرهون تدخل الأجانب في بلادهم، ثم إنهم لا يملكون المال الكافي لاستثمارها، وتوفير الخير في أرضها.

وأما حسدي للحجاج الذين كانوا يضربون الأرض نحو مكة فلا يستطيع قلم وصفه، إني لا أزال بانتظار الإذن بالسماح لي بزيارة الأماكن المقدسة، فهل أوفق إلى ذلك؟ هذا ما يزال في عالم الغيب.

لما رجعنا إلى جدة قصدنا الفندق الكبير الذي افتتح أبوابه خصيصاً منذ أيام لاستقبال الحجيج، وكان في الفندق بعض المهندسين الأميركيين الذين يعملون على الاتصال بالملك عبدالعزيز

آل سعود، لينالوا منه امتيازاً بالحفر عن البترول في الجزيرة، فلما انتصف اللَّيل أو كاد، عدنا أدراجنا إلى المنزل في سيارة الفورد خاصة المستر فيلبي، وإني لا أزال أذكر الجِمال تحمل الأثقال من المتاع والرجال تمرّ بنا في الطريق ساكنة هادئة، فأعود بالفكر إلى ماضيات الأيام، أفكر في هذا الحيوان الصبور الجَلْدِ الذي مكَّن العرب من اقتحام العالم، والذي حمل طارقَ بنَ زيادٍ وجيشه إلى بلاد الإسبان فاقتحمها في أيام معدودات، وإني لأرجو من صميم قلبي أن لا تقضي السيارة على هذا الحيوان الجَلْدِ الأمين.

٤ مارس

لقد سافر المستر فيلبي اليوم إلى مكة ليحضر صلاة الجمعة، مرتدياً ملابسه العربية الجميلة.

وقد علمت أن موسم الحج سيبدأ رسميًّا في الرابع من الشهر المقبل (نيسان) وأن جلالة عبد العزيز آل سعود قد تناول تحرير سفيره في لندن بشأني، وأنه يدرس الأمر، ولقد نصحني بعض أصدقائي أن أكتب للأمير فيصل نائب الملك في الحجاز كتاباً أشرح له فيه قضيَّتي، كما أنه بلغني أن السكرتير الدائم لوزارة الخارجية سيزور جدة وسيقضي فيها أياماً، وأنه يريد مقابلتي.

* * *

٥ مارس

لقد زارني بعد ظهر اليوم صاحب المعالي **فؤاد بك حمزة** وهو سوريٌّ يجيد اللُّغة الإنكليزية كلَّ الإجادة، وقد تلطف فأظهر لي رغبته في مساعدتي والعطف عليَّ، مما زادني له شكراً وتقديراً، وبعد أن أخذنا

بأطراف الحديث بعض الوقت سافر إلى مكة ومعه كتابي إلى نائب الملك الأمير فيصل، وقد أصبحت قضيتي الآن بين يدي الملك صاحب الجلالة، وأنا أنتظر حكمه وأمره.

والواقع أن طلبي يحتاج إلى كثير من البحث، ذلك أن الملك قد أصدر أمره بعدم السماح لأي سيدة أجنبية بزيارة الأماكن المقدسة، خصوصاً وأن من زرن الأماكن المقدسة من السيدات الأجنبيات لم يكنَّ كثيرات الاحترام لواجبات الضيافة، في ما تكلفَن من كتابته عن الحجاز بعد ذلك، والعرب ينكرون مثل هذه الأمور، ويرون فيها خرقاً كثيراً لحرمات الضيافة.

تناولتُ طعام العشاء في مساء هذا اليوم في دار المفوضيَّة الإنكليزية، وكانت السهرة جميلة فتانة تعرفت فيها على مفوضي تركيا وإيطاليا وإيران وروسيا لدى بلاط الملك عبدالعزيز آل سعود.

أما سفير روسيا فإنه مسلم من تركستان، وإن كان زوجاً لسيدة روسيَّة لا تدين بدينه.

* * *

٨ مارس

لقد عاد المستر فيلبي من مكة وأخبرني أن أمري اليوم بين يدي الملك، وأنه لا يدري ما يكون مصير طلبي حتى الآن.

وقد تحدث المستر فيلبي في ما تحدث به إليَّ وإلى زوجه بأن سموَّ نائب الملك الأمير فيصل سيزور سيدة البيت يوم الجمعة، وهذا شرف عظيم لم يكن يناله غير المستر فيلبي وزوجه.

* * *

٩ مارس

لقد أقبل سموّ الأمير فيصل إلى المنزل في الساعة الخامسة مساء، ولعمري إن في مظهره وجلاله وشكله لهيبة لست تجدها عند بعض الأمراء والملوك، وكان يصحبه فتاه الصغير، وقد ارتدى الزِّيَّ العربيَّ الذي يرتديه سموُّ والده؛ وأتى معهما بعض الوزراء، والأمير طويل القامة رقيق الجسم، أسمر الوجه بهيُّ الطلعة وقور الوجه، فتَّان الملامح.

أما فتاه الصغير عبد الله، فقد امتلك قلوب الجميع بلطفه وجماله، ولباقته، وحسن تصرُّفه، ولقد جلس إلينا نحدثه بعربيتنا المضطربة فكان جوابه أبداً رضيًّا ساذجاً، سألناه عن شأنه فأخبرنا أنه يحبُّ ركوب الجمال والخيل، ولما سألته إذا كان قد ركب حماراً في حياته، ظهرت عليه أمارات الإنكار والرفض.

* * *

١٣ مارس

وأخيراً جاء الأمر بالسماح لي بزيارة الأماكن المقدسة، لقد كان سروري عظيماً جدًّا، وأخذت بتهيئة نفسي لهذه الزيارة، وتركت لمضيفي أمر ترتيب شؤوني وما يلزمني في هذه الرحلة.

* * *

١٤ مارس

لقد أصبح كل شيء جاهزاً لسفري، أما المدينة فإنها تبعد (٢٥٠) ميلاً عن جدة، وليس بالإمكان أن أقطع كل هذه المسافة في يوم واحد، فلا بد لي والحالة هذه من النوم في السيارة.

لقد هيأ لي خادم المستر فيلبي ملابس الإحرام وأخذ وزوجته يعلِّماني فروض الحج وواجباته؛ وأظنُّ أني سأوفق كلَّ التوفيق إلى القيام بها كلها إن شاء الله.

ـ ٣ ـ

إلى مدينة الرسول ﷺ

غادرت جدة إلى المدينة على سيارة استأجرتها لعشرين يوماً وذلك لمدة الحج كله، وتفضل المستر فيلبي فأعارني خادمه مصطفى نظير، وقدَّم إليَّ خادماً سودانيًّا آخر ليقوم بخدمتي أيضاً، ومن الغريب أنني لما تحدثت إلى السوداني برغبتي في جمله إلى المدينة، سقط على رجلي باكياً شاكراً، أن مكنته من زيارة قبر الرسول ﷺ.

وانطلقت بنا السيارة بعد الغياب؛ تقطع الأرض بنا ميلاً بعد ميل، والطريق موحشة مظلمة ليس فيها منظر لطيف ولا مشهد جميل، ولا ترى من أولها حتى تصل إلى ما يقارب آخرها غصناً يلوح، ولا رقعة بقدر الكف خضراء تفوح، ولا يكاد يقع نظر المسافر من الجانبين إلا على رمال محرقة، يجنُّ الليل وهي حافظة لحرارة النهار، وعلى آكام وأهاضيب أكثرها من الحجارة السوداء كأنها من بقايا البراكين.

والطريق في آخرها أحسن منها في أولها، فإنك تقع بعد ساعات على كلإٍ كثير وخصب نضير، وتقع كذلك على القوافل تضرب في الأرض، وعلى الماشية ترعى العشب.

ومع ذلك فقد كنا ما نزال على أرض الساحل لما وصلنا إلى رابغ، ورابغ هذه باب المدينة المقدسة، وهي تعد ثلث الطريق، فلما انتهينا من عملية فحص الجوازات وتصديقها غادرناها، والطريق بعد رابغ خصبة على العموم، وفيها مزارع وأشجار؛ وأخيراً وصلنا إلى المدينة بعد أن قطعنا المسافة في خمس عشرة ساعة، أما الذين يقطعون هذه المسافة على الجمال فإنهم يحتاجون إلى ما يقرب من عشرة أيام، وقد رأينا الكثيرين منهم في طريقنا يقصدون المدينة المقدسة، ورأينا بينهم أشخاصاً قد ركبوا الأرض يقصدون هذا الأديم المقدس على الأقدام.

لقد وصلنا إلى المدينة بعد أن غابت الشمس أو كادت، وبعد أن أخذت أنوار مدينة النبي بالظهور واللمعان، أما سائق السيارة فقد كان يعرف المدينة قبل اليوم، وأما نحن الثلاثة فكنا نقصدها لأول مرة.

وبعد أن فحصت أوراقنا وجوازاتنا سمح لنا البوليس الحجازي بالدخول إلى البلد المقدس، وكانت الساعة العاشرة مساء، وقد وجدت على الباب شخصاً بانتظار وصولي، ولعلَّ المستر فيلبي قد أوصاه بملاقاتي والاهتمام بأمري؛ فأوصلني إلى منزل لطيف خصصت لي غرفة فيه، وكنت قد أعياني التعب ونالت مني مشقات السفر، فلم أتمكن من زيارة المسجد إلا في صباح اليوم التالي، وذلك بعد الاتفاق مع المزوّر على ذلك، فتمكنت بهذه الواسطة من الاستمتاع ببعض الراحة التي كنت في حاجة قصوى إليها.

ولكنني ما كدت أغمض عينيَّ حتى أخذت أستمع لصوتٍ رقيق

يقرأ القرآن، وكان الصوت ظاهراً بَيِّناً، بحيث كان بإمكاني أن أعرف أنه يقرأ سورة يوسف، وعلى ترتيل هذا الصوت الجميل والكلمات الإلٰهية أغمضت عينيَّ وأسلمت نفسي إلى الله.

* * *

١٦ آذار

أفقت من النوم باكراً، فإذا صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الصُّبْحِ، وأطلقت بصري من غرفتي على المدينة فإذا قباب مسجد الرسول ظاهرة عالية، وإذا قبة القبر بيِّنة أيضاً، فنالني من الفرح أشدَّه لما علمت أنني حقًّا قريبة من هذا المسجد المقدس، في عرض الإسلام وطوله.

ثم توضأت مسرعة وخرجت من البيت لملاقاة المزوِّر «المطوف» الذي كان عليه أن يصحبني إلى المواطن التي تجب زيارتها.

ومشينا نحو المسجد، وقد أسدلت قناعي على وجهي، وكانت الشمس قد أشرقت أو كادت، وكان النهار ما يزال بارداً زاهياً.

فلما تلمسنا مدخل المسجد النبوي تولتني رعشة عظيمة؛ وظهرت أمامي قبة القبر الشريف باسقة عالية، فعراني من الذهول ما لا أستطيع تصويره، وخلعت نعليَّ وتقدمت أمشي على صحن الجامع، أتأثر خطوات رفيقي في وسط هذه العُمُدِ الكثيرة التي تملأ المسجد وباحاته، ثم أخذت لنفسي مكاناً قصيًّا صليت فيه صلاة الصبح، وأنا غارقة في عالم هو أقرب إلى الأحلام.

والمسجد لا يفرغ أبداً من المصلِّين، ولا من قراءة القرآن التي لا تنقطع فيه أبداً.

وأخيراً تقدمت نحو القبر الشريف، وكان الزحام شديداً حوله، والمؤمنون سكوت يصَلُّون في قلوبهم، أو يطلقون النظر إلى القبر، والقلوب واجفة، والأفئدة خاشعة، والعيون منكسة، ولم يكن هناك حوله من يصلي، ذلك أن محمداً ﷺ منع الصلاة عند قبره، ونهى عنها؛ حتى لا يتخذ الناس قبره موطناً للعبادة، أو كعبة للتقرب من اللَّه، وذلك لأن الصلاة إنما تكون للَّه جلَّ جلاله، ولقبلة الكعبة، وليس في الإسلام صلاة لغير اللَّه، ولا قِبلة غير الكعبة.

ولما انتهيت من الصلاة على الرسول العربي والدعاء له، أطلقت بصري نحو القبر الشريف، فلم أتمكن من النظر إلى داخل المكان جيداً لكثرة الزحام، ولكني لحظت اختفاء الجواهر الثمينة التي كانت تحت القبة، وعلمت أن الحاكم التركي أرسلها إلى أنور باشا وطلعت باشا في إبّان الحرب العامة، ولعمري ليحسنن مصطفى كمال باشا صنعاً إذا ردَّها إلى مقرِّها وأعادها إلى مكانها.

وينام قرب القبر الشريف قبر الخليفة أبي بكر ﷺ وقبر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ؛ فقرأت ما تيسر على قبريهما، ثم مشينا إلى حيث كانت تسكن فاطمة ﷺ بنت رسول الله ﷺ فقرأنا ما تيسر من الدعاء أيضاً.

أما جمال المسجد فلا يستطيعه قلم واصف، ذلك أن فيه سذاجة وروعة يأخذان بمجامع القلوب، وذلك أن فيه بساطة قلَّ أن تجدها في مسجد سواه ما خلا الحرم الشريف، لقد نظرت إلى

الأعمدة المصنوعة من المرمر، وأطلقت البصر إلى هذه الزخرفة العربية في البناء والنقوش وكتابة الآيات غير مرة، فكنت في كل مرة أنظر إليها أجد فيها جمالاً جديداً لم أعهده في المرة الأولى، وكنت أقع فيها على طرافة لم أجدها في ما سلف وما رأيته من أبنية وآثار وصوامع.

وتعلو الجامع خمس منائر، يصدر الأذان منها في وقت واحد من الأوقات الخمسة، وبذلك تسمع المدينة كلها صوت الدعوة إلى الصلاة والتوجه إلى الله.

ولو استطعت ما فارقت المسجد، ذلك أني وجدت فيه انطلاقاً من هذا العالم الدنيوي لم أكن أعهده ولا أعرفه، وذلك أني وجدت فيه حالة روحية جديدة ملأتني نشاطاً وقوة ورقَّة، وحبًّا للَّه وعباده.

والحقّ أقول إن الحبَّ عندنا وكما يفهمه الغربيون، ما يزال قريباً من الغريزة الجنسية، مقصورة دائرته أو تكاد، على ما تلهمه هذه الغريزة لتخليد هذا النوع وتحسينه، فأما المناطق العليا التي يرتفع الحب المهذب إليها، فأما الحب بمعناه الإنساني السامي من الاشتراك في تمثيل الحياة لتزيد الحياة قوة وجمالاً وسناء، فأما الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات، والرقيّ النفسي إلى عالم الخير والجمال والحقّ، فهذا ما لا يفكر به أحد، أو يتصور وجوده إنسان، وهو إلى ذلك كله موجود في الإسلام منطوٍ في هذه الأخوَّة الإسلامية التي تجعل من الفرد عبداً يعمل لخير المجموع، وفرداً قصارى هَمِّهِ أن يعمل للإحسان والإحسان أبداً.

* * *

١٧ آذار

تلطفت سيدات ينتمين إلى عائلة صديق أعرفه في دمشق فزرنني في النزل الذي أنا فيه، فسررت بهنَّ، وأخذت بأطراف الحديث معهنَّ، فوجدتهنَّ كثيرات التعرُّف لكلِّ ما يتعلق بالحياة الغربية وموقف المرأة فيها، ورحنَ يسألنني عن سبب إسلامي، فحدثتهنَّ، فطلبنَ مني قراءة بعض سور القرآن لما أخبرتهنَّ بمعرفتي للعربية، ففعلتُ وقرأت لهنَّ سورة ياسين، التي كنت أحفظها عن ظهر قلب.

ولعمري لقد صعب عليهنَّ أن يقرأن مثل قراءتي، مع أنهن كنَّ من المتعلمات الذكيّات.

ولما حان وقت الصلاة أخبرتهنَّ بعزمي على الصلاة في المسجد وسألتهنَّ مرافقتي، فاعتذرن، فذهبتُ وحدي، ولما عدت إلى غرفتي وجدتهنَّ قد أقمن الصلاة فيها؛ فلما انتهين من ذلك جلسنَ إلى مائدة شاي أُعِدَّتْ لهنَّ وأخذت أعرض معهن لكل ألوان الأخبار والأحاديث مما كان يزيدهن سروراً ورغبة في معرفة ما يجهلن.

لقد خرجت بعد ظهر هذا اليوم إلى السوق أسرّح النظر فيه، وأستعرض مختلف نواحيه، ورحت أعود بالذكرى لأيام سلفت، ويوم مشى محمد بن عبد اللّه إلى المدينة مهاجراً من بلدٍه بعد أن تولَّوْه بالأذى، وأغرقوا في إيذاء أصحابه وأنصاره، ثم همُّوا بقتله والقضاء عليه وعلى صحبه.

هذه هي المدينة، مدينة الرسول ومقر هجرته، وها أنا اليوم فيها وفي أسواقها أمشي على أديم الأرض الذي كان يمشي عليه

الرسول الكريم؛ وأنظر إلى السماء التي كان ينظر إليها دائماً، فتعيد هذه الذكرى إلى نفسي، ذكرى جهاده في سبيل لا إلٰه إلا اللَّه، وتلقي في روعي صبره على المكاره، واحتماله للأذى في سبيل الوحدانية الإلٰهية.

* * *

وإنَّ من طرافة الإسلام هذا السلام الذي أمر به القرآن أمراً فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ ألا ترى إلى هذا الإغراق في السلام، يودُّ الواحد من المؤمنين أن يفوز على رفيقه في القيام بهذا الواجب، فهذا الكبير وهذا الصغير، وهذا الحرّ وهذا العبد، كلٌّ يسلم على الآخر بمثل الحرارة التي يسلِّم بها الرفيع على مثيله، والشريف على ندِّه، ولعمري إذا لم يكن في الإسلام إلا هذه الأخوة التي قتلت التفرقة، وجعلت من الإنسانية شخصاً واحداً لا يعلو واحدها على رفيقه إلا بالتقوى والعمل الصالح لكفى، ولكان الإسلام من خير الأديان وأقربها إلى اللَّه، وأرفعها درجات.

ولقد أشار المستر بيكتول الكاتب الإنكليزي، إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذَّة في تاريخ الإنسانية، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعمُّ الغرب من أقصاه إلى أقصاه، ويتصل بين المرء وولده وشقيقه ونسيبه وجاره، وكيف أن الإسلام يقف وحيداً في هذه الظاهرة، حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات والعرى.

* * *

لقد زرت في يومي هذا كثيراً من مقابر السلف الصالح من

الصحابة وغير الصحابة، كما أني زرت مقابر زوجات النبي، وقد جمعنَ إلّا أقلهنَّ في صعيد واحد، ولما كان بعض كتاب الغرب قد عرضوا لما انصرف إليه الرسول العربي من تعدد الزوجات فإن من الحكمة أن أقف قليلاً أمام هذا الأمر **أتناوله بالبحث والتعليق**.

لقد كانت خديجة رضي الله عنها أول زوجات الرسول ﷺ. وكانت زوجته الوحيدة لمدة خمس وعشرين سنة، وكانت أكبر من الرسول سنًّا، ولم يتزوج في حياتها سواها، فلما توفيت كان محمد في الخمسين من عمره.

ومما يجب أن يصار إلى ذكره أن زوجات النبيّ ﷺ، إذا استثنينا عائشة بنت صديقه وخليفته أبي بكر كنَّ من الأرامل اللواتي أصبحن ولا من معيل لهن بعد وفاة أزواجهن من أنصار محمد وصحابته، وبعضهنَّ كنَّ قد بلغن سنَّ الشيخوخة.

فهذه حفصة بنت عمر بن الخطاب الخليفة الثاني في الإسلام، توفي زوجها في إحدى المعارك فأصبحت لوحدها، فتزوجها رسول اللّه حفظاً لذكرى أحد أصحابه، وتقديراً لعمر وخدماته.

وقد كتب المستر بيكتول يقول:

«يقول بعضهم إن تعدد الزوجات من الواجبات في الإسلام، والواقع أن الأمر غير ذلك، فتعدُّد الزوجات ليس في الإسلام واجباً، وهو في الحقيقة مثله في المسيحية - وقد كان تعدُّد الزوجات منذ سنوات أمراً واقعاً في المسيحية - ولكنه ألا يصح أن ينظر إليه نظرة حق وعدل، خصوصاً وأنه يرفع بعض الحيف عن المرأة، ويقرر لها مركزاً تحاول المدنية الغربية إغفاله، ذلك أن

الزواج الواحد لم يكن في وقت من الأوقات أمراً واقعاً في أوروبا وبسببه نرى نساءً كثيراتٍ ترمى في الأزقة، ويرفض الاعتراف بهنَّ بسبب هذه العقيدة التي ليس هناك من يحافظ عليها، فالإسلام والحالة هذه يضع حدًّا لهذه الظاهرة البغيضة، ويسمح للمرأة التي تتعلق بشخص متزوج أن تعيش عيشة شريفة حرَّة محترمة.

وليس من ينكر ما نراه في أوروبا اليوم، من ظاهرة تعزيز المرأة وكيف أن هناك نساء كثيرات يسقطن إلى أقصى دركات الانحطاط والسفالة، فالسماح بتعدد الزوجات في الإسلام يضع حدًّا والحالة هذه لتعدد الزوجات الموجود في الغرب، والذي لا تقرره القوانين - ولكنه أمر واقع - والذي يكون من نتيجته إقفال الباب في وجوه النساء اللواتي يرميهن سوء حظهن في مهالك الرذيلة فيسقطن وأولادهن في الشوارع تاعسات بغيضات».

* * *

ولقد كانت المدينة في عهد الرسول ﷺ بلداً صغيراً تخرج منه تجارة رائجة من النخيل وغير النخيل تضرب في الأرض نحو العراق وسورية، وكانت إلى ذلك كله زاهرة برياضها وجناتها ومزارعها. وأما اليوم فإن أكثر ما حولها من الأرض لا تعمل فيه يد المزارع، وكانت المدينة قبل الحرب تعدّ سبعين ألفاً من الأنفس، فأصبحت اليوم وهي لا تعدّ خمسة عشر ألفاً، ولعلَّ الأيام المقبلة تصلح من حالها وتعيد إليها عهدها الماضي الزاهر.

ومع أن الإسلام ينهى أتباعه عن المغامرة والحرب إلا إذا كانت دفاعاً عن النفس، وردًّا لغارة المعتدين، ومع أن بعض

الديانات الأخرى تدعو للحرب، وتأمر بها، فإن الإسلام يمنعها كما تثبت ذلك الآيات الآتية:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

سورة البقرة - آية (١٩٠)

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ * وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ * وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

سورة الحج - آية ٣٨ و٣٩

وهذه الآيات تقرر بصراحة المواطن التي أحلَّت فيها الحرب، وأما كلمة الجهاد الذي أُولع بعض كتاب الغرب بتفسيرها وفاقاً لأهوائهم وأغراضهم فإن النبي قد صرح بأن أعظم الجهاد هو جهاد المرء نفسه، فالجهاد والحالة هذه كلمة معنوية يراد بها محاربة الرذيلة؛ والعمل في سبيل المعرفة، وهذا واجب على كلِّ مسلم ومسلمة.



الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود في شبابه

١٩ آذار

لقد سمح لي الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود باستعمال سيارتي خارج المدينة، فاغتنمت هذه الفرصة وخرجت بها إلى خارجها أشاهد جمال هذه البلدة المقدسة من أعالي الجبال التي تحيط بها حتى وصلت إلى المكان الذي حدثت فيه معركة أُحد، بين المسلمين والمشركين من أهل مكة، وأخذت أنظر إلى المقبرة التي دفن بها قتلى المسلمين، وقبر حمزة بينهم، وكان الوهابيون لما دخلوا المدينة قد هدموا القبور وسوَّوْها بالأرض وفاقاً لأمر الرسول الكريم.

لقد وقفت أنظر إلى هذه الأرض التي تقول بعض الأخبار إنها ستكون مكان الحشر في اليوم الآخر، وكيف أن الناس يحشرون جميعهم فيها حتى الحيوانات أيضاً، لأن الإسلام لا ينكر خلود الروح على الحيوانات، وفي هذا تعزية لأولئك الذين يبكون صديقاً من هذه الحيوانات خصوصاً الغربيين منهم.

وذكرت في هذه اللحظات نصيحة الرسول للمسلمين بالعطف على الحيوان والبرّ به، والتخفيف عنه، وذكرت في هذه المناسبة أيضاً، ما جاء في القرآن الكريم عن خلق العالم وكيف أن اللّه سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالاً عديدة.

ـ ٤ ـ

أيام في المدينة

٢٠ آذار

لقد أخذت أرى في الحياة العربية جمالاً وروعة شديدين، وقد أصبحت لا أرى كبير أمر في الجلوس على الأرض، وتناول الطعام، كما هي عادة بعض الأعراب الذين ليسوا على شيء كثير من اليسر والرفاهة.

أما لباسي العربي فإني أرى فيه طرافة عظيمة، وأراه أصلح للمرأة من هذه الملابس الأوروبية الضيقة الدقيقة، ولكني لا أزال محتفظة بنعلي ولم استبدلها بسواها، وهو ما كان يبعث كثيراً من العرب على العجب والدهشة.

لقد أخذت بزيارة ضواحي المدينة المنورة؛ فزرت مسجد القبلتين، ومسجد قباء؛ وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ، يوم غادر مكة مهاجراً إلى المدينة.

وإني لأعود بالفكر إلى ماضيات الأيام، ويوم كان رسول اللَّه في طريقه إلى المدينة، وكيف كان أهلها المسلمون يخرجون إلى ضاحيتها ينتظرونه ورفيقه أبا بكر، وكيف أنه أقام في قباء أياماً ريثما

لحق به الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وكيف احتفلت المدينة بمقدمه، وخرجت رجالاً وشباباً وشيباً ونساء يهزجون ويرقصون ويغنون، وقد استبشروا بمقدمه، واحتفلوا بهجرته، وزاد إيمانهم بوجوده بينهم، ونزوله في حمى الله وحماهم.

ولقد كان المسجد مقفراً ليس فيه إلّا أنا وبعض المصلين، فقمنا إلى الصلاة، والسكون من حولنا متصل، والخشوع عظيم، والعواطف مليئة بالرقة، فذهب كل واحد منا يناجي ربه في صلاته، ويستغفره ويطلب عفوه ورضوانه، ويدعو لنفسه ولغيره من المسلمين، والناس أجمعين.

ساعات لذيذة حلوة جلَّلتها التوبة، وغمرها الخشوع، وتولاها اللَّه برضاه وحنانه وعطفه.

* * *

٢١ آذار

لقد تبدلت الحالة في البلاد المقدسة كلَّ التبدُّل، فبعد أن كان المسافر لا يأمن على نفسه، ولا يسير فيها إلا وهو في عصبة من قومه، أصبح مطمئنَّ البال، ناعم الحال، هادىء العواطف، لا يخشى لصًّا ولا جانياً، وأصبحت القوافل تسير سبيلها في أرض الجزيرة، وتنزل أيّان شاءت من وهادها وغمارها، لا يفزعها شيء ولا يمرّ بخاطرها أن سيعرض لها حادث، أو يتعرض لها أحد، وهكذا كان شأن حكم الملك عبدالعزيز آل سعود في الجزيرة وأثره، فقد قلب الحال إلى غيره، وقضى على غزوات القبائل، ومزق أرباب الفتن والمشاغب.

وزاد عمران الحجاز في عهده الخيِّر، بما أنشأ فيه من العمارة والفنادق، خصوصاً الفنادق، فإنها أصبحت وافية بحاجة الحجاج، فقد توفرت فيها كل أسباب الراحة، مما ليس للحجاز عهد به قبل اليوم.

وقد يذهب البعض إلى الظن بأن الحجاز مجهلٌ من مجاهل آسيا أو إفريقيا؛ وهو قول فيه كثير من الإغراق والصفاقة، فالحجاز وطن الإسلام، وإليه يحج المسلمون من أقاصي الأرض وأدانيها، وهو بلد متحضر إلا أنه فقير، والفقر لا يمنع الأناقة ولا ينفي النظافة والترتيب، والبساطة الجميلة، ومن الغرور أن يتصور المرء أن الحجاز - لأنه على البحر الأحمر، ولأنه ليس مصيفاً أو مشتًى للمترفين وبغاة المراقص وطلاب الملاهي - يجب من أجل ذلك أن يكون متوحشاً وعلى الفطرة الأولى، والواقع غير ذلك، فإن ما عرفته وشاهدته من أطعمة وموائد في قلب الصحراء وتحت الخيام، يندر أن تقع عليه العين أو يذوقه اللسان، حتى في البلاد المتحضرة.

لقد زرت يوماً السيدة فاطمة ردًّا لزيارتها لي، فإذا المنزل الذي تسكنه مليء بكل أسباب الرفاه والسعادة، وإذا هو جميل حسن التقسيم، كبير الغرف، وإذا صاحبة البيت تقف لاستقبالي مع جمهرة من صديقاتها وصويحباتها، وكلهنَّ مثلها رشاقة وجمالاً ولطفاً وعلماً.

وكم كان عجبي لما وجدت بينهن سيدة تركية تجيد الفرنسية كلَّ الإجادة، فلما سألتها عن شأنها، قصَّت عليَّ أن والدها كان سكرتيراً للسفارة التركية في باريس، في غابر الأيام، وأنها تزوجت

ضابطاً في الجيش التركي، قتل في الحرب العامة، فتزوجت برجل من أهل المدينة، وأنها سعيدة بحياتها الحاضرة ولا تروم عنها بديلاً.

* * *

وفي مساء اليوم نفسه جلست إلى ربَّة البيت وزوجها نتحدث عن هذه التهم التي يوجِّهها الغربيون إلى الإسلام ونبيِّهِ، وما يدَّعونه من بُعد الإسلام عن الرحمة في معاملة الشعوب المغلوبة، ولا أدري كيف يكون الإسلام بعيداً عن الرحمة وهو لم يجبر جماعة واحدة على اعتناق دينه بالقوة؛ وفاقاً لما أمر به القرآن من أنه لا إكراه في الدين، وهذا شيء ثابت تؤيده الكتب التاريخية كلُّها؛ وليس هناك جماعة أو شعب غير المسلمين في العالم يستطيع أن يدعي هذه الدعوى أو يؤيده التاريخ بها.

لقد سرَّني ما علمته بعد ذلك من رغبة شباب المدينة وانصرافهم إلى تلقِّي العلوم والمعارف، وليست هذه الرغبة جديدة، ذلك أن محمداً ﷺ قد أمر بها ودعا إليها، وذلك أن القرآن الكريم نفسه قد أوجبها على كلِّ مسلم ومسلمة، وليس من يجهل خدمات العرب للعلم والمعرفة في أيام حضارتهم وعزهم، وكيف أنهم أنشأوا المدارس وعنوا بالمستشفيات، وعززوا المعارف، وأجازوا أهل العلم والعرفان، وعملوا على نشر الكتب، وترجمة المؤلفات الإغريقية والهندية والفارسية في الفلسفة وغيرها في كلِّ الأقطار والأمصار التي امتدت حضارتهم إليها واستقام حكمهم فيها، حتى أصبحت بغداد في عصرها الزاهر مدينة العلم والفلسفة، وأوروبا لا

تزال حتى يومنا هذا مدينة للإسلام بهذه الشعلة العلمية التي حملها العرب في أيام حضارتهم وحافظوا عليها كل المحافظة حتى أخذتها أوروبا منهم.

وليس هنا مجال البحث في خدمات العرب للعلم والفلسفة والمعارف، وهي إلى ذلك خدمات ليس من ينكرها في العالم المتمدِّن، ولعل أعمال الريِّ التي أنشأوها في إسبانيا لا تزال ناطقة بما أسبغوه على هذه البلاد من حضارة وعمران.

ولم تكن النساء متأخرات عن الرجال في ميدان العلوم والمعارف؛ فقد نشأ منهنَّ عالمات في الفلسفة والتاريخ والأدب والشعر وكل ألوان الحياة.

وإن أثر القرآن في كلِّ هذا التقدم لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمراناً وحضارة، كما أن الإسلام هو الذي مكَّن العرب من بين الشعوب السامية أن ينزلوا أوروبا فاتحين حاكمين بخلاف الفينيقيين الذين نزلوها متاجرين، واليهود الذين قدموها هاربين، وقد جاء العرب إلى أوروبا ومعهم شعلة العلم في ذلك الزمان الماضي، وهو ما يحملنا أن نبكي مصرع الأندلس، لأن مصرعها كان ضربةً على الحضارة الحديثة والعمران القديم.

* * *

ولقد كان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد ﷺ أنشأ هذه الأمة إنشاءً

جديداً يصحُّ أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلّبت العلم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً، حتى دبَّ فيها الفساد، وتطرق إليها الترف فانهارت حضارتها، وانطفأت معالمها، وأصيب العالم والحضارة من سقوط العرب وانهيار سلطانهم بخسارة لا تعوَّض[1].

* * *

٢٣ آذار

لقد زرت القبر الشريف للمرة الأخيرة، وقبل مغادرتي المدينة، فأحدثت فيَّ هذه الزيارة ما أحدثته الأولى من تأثير وروعة واضطراب عاطفة، ولعمري ليجدنَّ المرء في نفسه ما تقدم إلى القبر، روعة ما يستطيع لها تفسيراً، وهي روعة تملأ النفس اضطراباً وذهولاً ورجاء وخوفاً وأملاً؛ ذلك أنه أمام نبيٍّ مرسلٍ، وعبقريٍّ عظيمٍ، لم تلد مثله البطون حتى اليوم.

وقفت باهتة ذاهلة، باكية مسترجعة، من خشية اللّه وجلال القبر، ذلك أن العظمة والعبقرية يهزّان القلوب ويثيران الأفئدة، فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوَّة، وما بالك بها، وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية؟!

ورحت أفكر في هذا اليتيم الذي لم ير لوالده وجهاً، ولا رأى من أمه إلا قليلاً، ينطلق إلى البادية مع مرضعته طفلاً فريداً وحيداً، ومن يدري فقد كان يبكي إذا ألَمَّ به شيء، فلا يضطرب لبكائه قلب، ولا يثب لوحدته فؤاد، رحمتك اللّهمَّ، رجلٌ تُبعث به أمة كاملة،

---

(١) من أراد أن يعرف أثر العرب في الحضارة والعمران فليراجع كتاب «ماذا يجب أن تعرف عن محمد والإسلام».

وترسل على يديه ألوان الخير إلى الإنسانية، ثم لا تغدق عليه هذه النعمة التي تغدقها على غيره من ملايين البشر وشتى الأناسيِّ نعمة الأمومة؛ ونعمة الأبوة، التي ينعم بها كثيرون ممن ليسوا لذلك أهلاً، ربّاه، إن لك قدراً نرتدّ أمامه صاغرين، ونؤمن به مطمئنين ولكنها دموع الطفولة، وهي في طفولتها أثارت هذا الكلام، ونفثت هذه العبرات.

* * *

ولعمري لقد كانت حياة هذا الطفل اليتيم، والنبيّ العظيم، شيئاً عجباً، يصبح جده عبد المطلب مضطرباً مثقلاً، يحس كأن الحياة تفارقه، وكأن الموت يسعى إليه، فيطلق بصره إلى أيامه الماضيات، وما صرف فيها من عمل وجهد، ومن خير وبرّ؛ ويفكر في هذه المحن والنوائب التي نزلت بأهله وبنيه، يفكر في عبد اللّٰه والد محمد، وكيف أنه كان يحبه ويألفه، ويضنُّ به على المكروه، وكيف فرح لما تمكن من فدائه بمئة من الإبل، واستبقاه لنفسه ولشيخوخته، ثم كيف زوَّجه بآمنة والدة محمد، ثم كيف أرسله إلى الشام ليموت في يثرب بعد أن اتجر فأفاد ربحاً كثيراً. وفكر عبد المطلب جدُّ رسول الله ﷺ في آمنة كيف خُطِبت للفتى، وكيف احتملت فقده كريمةً أبيَّة، ثم فكر في هذا الطفل اليتيم، وفي هذه الأطوار الغريبة التي أحاطت بمقدمه إلى الأرض ودخوله في الحياة[١] وكان قد أصبح على مثل اليقين من أن الله يريد بابنه اليتيم

---

(١) نشر كتاب جديد بعنوان (محمد النبي العربي) وهو تاريخ رسول الله ﷺ من أول نشأته إلى تاريخ وفاته بأسلوب وتقسيم وتبويب جديد في التاريخ العربي، وتبلغ صفحات الكتاب ٢٥٠ من منشورات المكتبة الأهلية - بيروت.

هذا خيراً، وكان يودُّ لو مدَّت له الحياة فرأى من أمر ابنه ما لم يكن يشكُّ في أنه واقعٌ محتوم، ولكن أنَّى له هذا والموت يمشي إليه، وهو يحسه قريباً منه، ثم هل مدت أسباب الحياة لعبد اللَّه حتى يعلم أنه ترك لنفسه وارثاً. . . وارحمتاه له. . لقد انقلب إلى ربه وهو لا يعلم أنه قد ترك في الدنيا وليداً لا كالأولاد، ثم هل مدَّت أسباب الحياة لآمنة حتى تسعد بابنها اليتيم، ما كادت تلده حتى اختطفته منها المرضع واحتملته إلى البادية.

ويفكر عبدَ المطلب بهذا كله، ثم يطلب من بناته أن يندبنه ويبكينه في حياته، فيجلسن حوله ويفعلن ما طلب وأراد، واليتيم قائم قرب سريره، يرى ويسمع؛ ويضطرب قلبه، ويثب فؤاده بما يرى وما يسمع، ثم تنهلُّ من عينيه عبرات ما كانت صامتة، وإنما كانت غزيرة منهمرة، تلك دموع اليتيم حين يحس أنه أصبح لوحده، وأنه قد فقد من كان يعطف عليه ويبرُّ به، ويقوم عنده مقام أبويه.

ولكن ربك يشمله برعاية لا تفتر، ويكلؤه بعناية لا تغفل، ويخصُّه بعطف لا يحصر، يؤدِّبه فيحسن تأديبه، ويسيِّره في الأرض يشاهد آثارها وينظر إلى أصنامها وباطلها وسفاسفها، ثم يبعثه إلى الناس نذيراً وداعياً إلى اللَّه بإذنه وسراجاً منيراً.

لعمري لقد جئت أمشي إلى القبر اليوم مروَّعةً حزينةً وباكيةً مستعبرة، ولو كان بطوقي التأخُّر لفعلتُ، فإن في نظري إلى القبر الذي ضمَّ أشرفَ الناس، وأنفعَ الناس؛ ما يغذِّي من قلبي ويشذِّب من نفسي، ويدفعني إلى العمل في السبيل الذي سار عليه رسول اللَّه

ﷺ، فراح يخدم الأعداء والأصدقاء، وينصح للمشركين والغافلين، ويعطف على الإنسانية جميعها.

* * *

وكان اليوم يوم جمعة، فكان حقًّا عليَّ أن أحضر صلاة الجماعة في المسجد وهو ما فعلته، فذهبت مع مصطفى خادم المستر فيلبي إلى الجامع ودخلت إلى المقصورات المخصصة للنساء، فإذا هي غاصَّةٌ بهنَّ، وكنَّ يتألفنَ من جميع الطبقات والأجناس، وكأنك أمام جمعيَّةِ أممٍ إسلامية، اجتمعت في صعيد واحد.

والصلاة في يوم الجمعة وما يتعلق بها من خطبة وغيرها تأخذ وقتاً أكثر من المعتاد، فرحت في هذه الفرصة أطلق بصري نحو المصلين، وكان المسجد النبويُّ يعجُّ بهم، وكانوا إلى ذلك يمثلون مختلف الأمم الإسلامية في طول العالم وعرضه، فهناك أمراء من بخارى، ونيجيريا، والهند، وهناك زعماء من الروس؛ وباشاوات من مصر وتركيا، يقفون صفًّا واحداً مع البائس والفقير والعاني، من الذين لم يوفقوا إلى جمع مصاريف حجهم إلا بوضع الدرهم على الدرهم السنوات الكاملة، وإن كان اللّٰه سبحانه وتعالى لا يكلف أمثال هؤلاء القيام بهذا الواجب المفروض على من يستطيعه فقط، ولكن حبَّ اللّٰه ورسوله كبير عند المسلمين، فلا يطيق حتى الفقير صبراً عن الزيارة.

ويهتم النساء اللاتي كنَّ حولي، فيتقدمنَ إليَّ يسألنني عن شأني وبلادي، فأقصُّ عليهم بعض شأني، فإذا عرفنَ أنني إنكليزية من

لندن، وأنني أسلمتُ حديثاً هنَّأنني بإسلامي، ويغير بعضهن فيهجمن على يدي تقبيلاً وتشجيعاً، ولعمري ليجدنَّ المرء في هذه الأخوة الإسلامية الفريدة في هذا العصر مظهراً من مظاهر المثل العليا التي تسعى إليها الإنسانية الحاضرة، ثم لا توفَّق إليها أبداً.

* * *

ومن غريب ما شاهدته، دقة المكلَّف بالمحافظة على أحذية المصلين الذين يتركونها عنده فيضعها في ما يشبه الأقفاص الخاصّة، وهي تعدُّ بالمئات وكثيرة المشابهة بعضها لبعض، ومع ذلك فهو لا يخطىء في تقديم كلِّ حذاء لصاحبه عند طلبه، ولو حصل هذا الأمر في حفلة استقبال في لندن، لوقع ما لا تحمد عقباه واختلطت أغراض الناس بعضها ببعض، وقد يكون حاضرو الحفلة لا يزيدون عن عشرات من البشر.

* * *

ولقد غادرت المدينة بقلب مضطرب، وأسًى ظاهر، خصوصاً لما تقدمت أصافح وأسلم سلام السفر على الأصدقاء، الذين تولَّوني بعطفهم إبّان زياراتي لهذا البلد المقدَّس، وإلى المزوِّر الذي صرف جهده بمصاحبتي في زياراتي للمدينة وآثارها، ولا أدري إذا كانت مستقبلات الأيام ستسمح لي بالاجتماع بهم، ولكن الذي أعلمه هو أني شاهدت منهم عطفاً ولطفاً كثيراً.

* * *

هذه سيارتي تطوي أديم العربية ووهادها وأغوارها، تقصد

العودة إلى جدة، أقضي فيها يوماً أو بعض يوم، ثم أغادرها إلى مكة المكرمة.

وكل ما حولي ساكن، إن الطبيعة لفي شغلٍ شاغلٍ عني، فهذه الصحراء نائمة على الأديم لا تحرك ساكناً ولا تأتي بحركة، وهذه سيارتي تحاول استباق الريح لتصل إلى مرساها الجديد.



ـ ٥ ـ

مكة المكرّمة

٢٥ آذار

لقد تقرَّر أن نغادر جدَّة إلى مكة غداً بعد صلاة العصر، ولمّا كانت المسافة لا تزيد عن خمسة وأربعين ميلاً، فإن أملي كبير في دخول مكة قبل غروب الشمس، وهذه ملابس الإحرام قد صُفَّت أمامي، وسأرتديها بعد الاستحمام، فأخرج فيها وكأني فراشة بيضاء.

* * *

٢٧ آذار

يضطرب ميناء جدة اليوم في ثمانِ سفن، وهذا منظر قلَّ أن تراه إلا في موسم الحج، لقد مشيت إلى الميناء لمشاهدة الحجاج الذين ركبوا البحر من مختلف بلدانهم إلى الأراضي المقدسة، فهذه قافلة من السودان، وهذه من جافا، وهذا رجل من نياجرا قد نزل إلى البر وحوله خمسون رجلاً من أتباعه، ومعه ثلاثة من أبنائه الأربعين.

غادرت جدة إلى مكة في الساعة التاسعة - الساعة العربية - وكانت قوافل الحجاج من جدة إلى مكة خيطاً غير منقطع؛ والجمال

تتهادى تحت الشقادف، وكثيراً ما تضيق بها السبل على رحبها، وأما الطريق من جدة إلى مكة فليس فيها غصن أخضر يلوح، ولا مرج ناضر يفوح، ولا يكاد يقع بصر المسافر من الجانبين إلا على رمال محرقة تدخل الحشايا، ويجنُّ الليل وهي حافظة لحرارة النهار، وعلى آكامٍ وأهاضيبَ أكثرها من الحجارة السوداء كأنها من بقايا البراكين.

ولكن الطريق ليست طول السنة في مثل هذه القسوة، بل هي في الربيع غيرها في الصيف إذ يرى منها المسافر في الربيع كلأً كثيراً، وخصباً نضيراً، وشجراً وزرعاً.

وما زلنا نسير حتى دخلنا حدود مكة التي يحرم فيها الصيد، والمسافة بالسيارة لا تتجاوز أربع ساعات، وكثيراً ما كنا نرى في طريقنا حجاجاً وقفوا يصلّون، وقد ولّوا وجوههم شطر المسجد الحرام، وقد تناسوا من حولهم من المسافرين، والغادين والرائحين، ولعمري إن سذاجة الدين الإسلامي ليس مثلها سذاجة، فالإسلام عبارة عن الإيمان باللّه ورسوله، ومعاملة الناس بالحسنى وعدم الإضرار بأحد منهم؛ والتسليم للّه، وانتظار النهاية دون ما خوف ولا وجل، ذلك أنك قادم على ربٍّ رحيم، وإلٰهٍ غفورٍ كريم.

وأخيراً أشرفنا على بلدة الرسول العربيّ ﷺ، وتشرَّفنا بدخول المدينة التي تشرَّفت بمولد سيد الوجود، وبالبيت الذي طهَّره إبراهيم وإسماعيل للطائفين والركَّع السجود، فقصدت البيت الذي أُعِدَّ لنزولي فاستقبلني أصحابه بشهامة عربية، عرف بها العرب منذ

القديم، وكانوا قد هيأوا لي غرفة حسنة سررت بها كلَّ السرور، وقد صار الاتفاق بيني وبين مضيفي على زيارة الكعبة والطواف بها، إذ كانت هذه الزيارة أول ما يجب أن يصار إليه حين دخول الحاجِّ إلى مكة، وبعد أن أصبتُ قليلاً من الراحة، خرجت من البيت أقصد البيت الحرام.

وللبيت الحرام أربعون باباً دخلت من أحدها بعد أن خلعتُ نعليَّ، ورفعت غطاء وجهي، فإذا بي في البيت العتيق، وإذا أنا أقف مذهولة لما أرى، مروَّعة لعظمة ما يقع عليه نظري من جمال وطرافة، وسعة، وكثرة أنوار، وقد كنت أتخيَّل البيت قبل أن أراه شيئاً؛ فإذا بي عند رؤيته أرى شيئاً آخر يفوق ما تخيَّلته أضعافاً مضاعفة، وليس في هذا عجب، إذا ذكر المرء أن الإسلام في ماضيات أيامه قد خلع على هذا المسجد كلَّ ما كان ينعم به من عظمةٍ وفنٍّ وعبقريَّة.

الأرض من المرمر، والأعمدة باسقة عالية يكاد يزيد علوُّها عن خمسين قدماً، أما أكر الكهرباء فتعدُّ بمئات الألوف، وقد جرت العادة أن تنار في أيام رمضان كلُّها، وأما اليوم فإن ما يُنارُ منها لا يتجاوز النصف، ولكن هذا كان كافياً وافياً ليجعل المسجد شعلة من الأنوار.

لقد طفت، وسعيت في البيت، وزرت الكعبة، وطفت حولها، وما كنت في هذه اللحظات غير ذرَّةٍ بين هذه العوالم العديدة التي كانت تحيط بي، وتصلِّي وتطوف وتدعو.

جماعات مختلفة من البشر، تولاها الابتهال، وغمرها الخشوع

فمن باكٍ ومن مصلٍّ، ومن داعٍ، ومن رافعٍ رأسَهُ إلى السماء يشهد اللَّه على زيارته لبيته، وطوافه حول كعبته.

ولقد تولّاني ما تولَّى هذه الجماعات التي لا أعرفها؛ والتي أتت إلى البيت الحرام من مختلف الأصقاع والأمصار، من خشوع وذهول وتوبة، واستغفار، وإيمان، فرفعت رأسي إلى السماء، ودعوت مع الداعين، وبكيت مع الباكين، وطفت مع الطائفين، وأسلمت نفسي للواحد الأحد، وغمرتني روحيَّة الإسلام؛ فنسيتُ نفسي ونسيتُ كلّ شيء.

بقيتُ مدة وأنا على هذه الحال، ثم قمتُ أتمِّم طوافي وعمرتي وزياراتي، فلما انتصف الليل إلا أقله رجعت إلى غرفتي أطلب راحة أنا في أشدِّ الحاجة إليها.

* * *

٢٨ آذار

أفقتُ من نومي مليئةً بالنشاط والقوَّة، وقد اعتزمتُ زيارة البيت في وَضَحِ النهار، أشاهد مفاخره عن كثب؛ وأنعم برؤيته عن قرب.

وكان الحجيج كثيراً عدده حول الكعبة، والملك عبدالعزيز آل سعود نفسه فيها يصبُّ الماء على أرضها وجدرانها، فحاولت أن أرى سيِّدَ الجزيرة وهو في عمله هذا فلم أوفق، إذ كان الحرُّ شديداً، وأرض الحرم حارَّةً لاذعة.

إن مكة عبارة عن واد ضيِّق ذي شعاب متعرِّجة، تحيط بذلك الوادي جبال جرداء صخرية صَمّاء، لا عشب فيها ولا ماء؛ قاتمة

اللون كأنها بقايا البراكين، إذا مشى عليها المرء في هاجرة النهار ظنَّ نفسه يدوس على بلاطِ فُرْن، أو يضطجع في حَمّام، وليس في تلك الشعاب أشجار ولا أنهار، ولا مروج ولا عيون تلطِّف من حرارة تلك الحجارة السوداء في حَمَّارة القيظ، وكأن القاصد إلى هذا الوادي إنما يزداد بهذه القسوة أجراً وثواباً وارتفاع درجات، فبقدر ما أفاض اللَّه على هذا المكان من الشعاع المعنوي قضى بحرمانه من الحِلْيَةِ المادِّيَّة.

وقد جعل اللَّه مكة مكاناً لعبادته، ولما قضى بأن تكون محلًّا للعبادة ومثابةً للناس وأمناً، قضى أيضاً بتجريدها من كل زخارف الطبيعة، ولم يشأ أن يطرِّزها بشيء من وَشْيِ النبات ولا أن يخصَّها بشيء من مسارح النظر المؤنقة، حتى لا يلهوَ فيها العابد عن ذكر اللَّه بخضرةٍ ولا غدير. ولا بنضرةٍ ونمير، ولا بهديلٍ على الأغصان ولا هدير، وحتى يكون قصده إلى مكة خالصاً لوجه الله.

وقد عرف إبراهيم عليه السلام حال مكة هذه، فدعا ربَّه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليها وأن يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون؛ وبدعوة إبراهيم هذه هوت إلى هذا المكان وإلى النازلين فيه أفئدة، ورفرفت عليهم جوانح من جميع حجاج الأرض، وترى الناس منذ ألوف السنين يحجون هذا البيت، ويحرمون قبل الوصول إليه بمراحل، وتجد قلوبهم في الرحلة إليه ملأى بالفرح، لا يكادون يصدِّقون أنهم مشاهدوه من شدة الوجد، وغلبة الهيام، حتى إذا شاهدوه فاضت العبرات وخفقت الجوانح، وتمايلت الأعطاف، وانتقل الناس فيه من عالم يصحُّ أن يقال إنه غير هذا العالم.

وكذلك رزق اللَّه أهلها وقُصّادها من كلِّ الثمرات والخيرات مما لا يوجد مثله في البقاع التي تشقها الأنهار وتظللها الأشجار، وكان فضل اللَّه عظيماً.

والحرُّ في مكة شديد، ولكنه قاتل للجراثيم والأمراض ولا مضرَّة منه على الإنسان إلا أن يتعرض للشمس في وسط النهار، وهذا يصدق في الذين لم يتعودوه من غير سكان المناطق الحارَّة، أما هؤلاء فلا يرون في حرِّ مكة كبير أمر.

* * *

وفي البيت الحرام ما لا يقلُّ عن ألف خادم، بينهم مئة من الطواشية، ولا يجد هؤلاء عملاً إلا في أيام الحج، ومن واجباتهم العناية بالمسجد وأرضه، بحيث لا يرى المرء فيه غباراً بل تظلُّ أرضه وأعمدته بيضاء تدهش الناظرين.

والواقع أن مكة إنما تعيش من موسم الحج، ذلك أنه ليس لديها ما تصدِّره، وليست أرضها صالحة للزراعة، لتقوم بحاجات أهلها وسكانها، وقد كانت مكة في ماضيات الأيام مركزاً حسناً للتجارة تمرُّ بأرضها، فلما انتقلت طرق التجارة إلى غيرها، أصبحت وليس لها من مورد إلا هذا الحجيج يأتيها في كل سنة من أطراف العالم كله.

ـ ٦ ـ

أديم محمد

٢٨ آذار

خرجت بعد ظهر اليوم إلى (منى وعرفات) لأنَّ علينا أن نبقى في منى خاصة ثلاثة أيام، وهو وقت يحتاج فيه المرء إلى تهيئة شؤونه، وترتيب أموره بحيث يصبح المكان سائغاً لقضاء الأيام الثلاثة.

وفي طريقنا إلى مكة رأينا قسماً من الإخوان الوهابيين في طريقهم إلى مكة للحج، وقد وضعوا نساءهم في ما يشبه السلال، وكانوا قد قضوا في سفرتهم هذه من نجد إلى الحجاز، ثلاثة أسابيع.

ومما يجب أن يصار إلى بحثه في هذا الفصل، هو الإشارة إلى أنَّ رسول اللَّه قد ألقى آخر خطبة في عرفات، وذلك في السنة العاشرة للهجرة، ويوم ذهب إلى مكة حاجًّا، وفي ركابه ما يقرب من تسعين ألفاً من المسلمين.

ولعمري لقد استطاع النبي القيام بالمعجزات والعجائب، تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول

الوحدانية الإلٰهية؛ ولقد كان الرسول في حجِّه هذا رجلاً ظاهر الشيخوخة بادي النَّصَب والتَّعب، ولكنه كان إلى ذلك رجلاً شاكراً حامداً أن وفق إلى خلق العرب خلقاً جديداً؛ ونقلهم من الظلمات إلى النور.

ومع أن محمداً ﷺ كان سيد الجزيرة العربية في هذا الحين ومليك العرب وزعيم قبائلهم، فإنه لم يفكر في هذه الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظلَّ على حاله مكتفياً بأنه رسول اللّٰه، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه، ويصلح حذاءه بيده، كريماً بارًّا كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلاً لا يكاد يكفيه.

ولقد خطب رسول الله ﷺ المسلمين يومئذ على عرفات فقال:

«أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كلَّ ربِاً مَوْضُوعٌ، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهنَّ عليكم حقًّا؛ لكم عليهنَّ أن لا يوطئنَ فراشكم أحداً تكرهونه، وعليهنَّ أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن اللّٰه قد أذن لكم أن تهجروهنَّ في المضاجع، فإن انتهينَ فلهنَّ رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، إن كل

مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين إخوة فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمُنَّ أنفسكم».

ولقد كانت هذه الحجة آخر حجات الرسول، وبعد مضي سنة واحدة، انتهت حياة رائعة كانت من مبدئها إلى منتهاها تعمل في سبيل الله والإنسانية.

لقد كتب (المستر بول) الكاتب الإنكليزي المعروف عن النبي العربي ما يأتي:

«إن في نفس محمد لشيئاً محبباً طريفاً رائعاً يحمل الإنسان حملاً على الإعجاب والتقدير، ولعمري إن الرجل الذي وقف وحده يدعو إلى الله، يتحمل الأذى في سبيل هذه الدعوة، سنوات عديدة، وأمامه جموع المشركين العديدة، تعمل ما في وسعها لمعاكسته وقتل فكرته ليستحقُّ كل تقدير وتمجيد، ثم إنك لتراه في كل أدوار حياته هو نفسه لا يسحب يده من يد صديق، محبب للأطفال الذين كان لا يمر بهم، إلا تلطف ووقف بينهم باسماً مشجعاً متواضعاً، والواقع أن المزايا التي كان ينعم بها محمد، تمحق الانتقاد محقًّا، ولا تترك مكانه إلا التقدير والإعجاب.

أما كارليل فإن خطابه عن محمد لا يزال ملء السمع ملء البصر، ولعل أطرف ما فيه الفقر المتعلقة بما قدمه محمد من خدمة للعرب والعربية، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، هذا رجل قد خلق أمة حقًّا، وحرَّر شعوباً كانت لسنوات خلت تعبد الأصنام، وتستنيم لزعامة الحكام والزعماء، وتنزل أطرافها تحت حكم قياصرة الروم وأكاسرة فارس.

* * *

من مستلزمات السعادة عند العرب، أرض نضير، ووجه جميل، وماء وفير، ولكن الأرض النضرة عزيز وجودها في مكة، إلا أن يتعهدها الإنسان بنفسه ويغرس أرضها بيده كما يفعل المستر عبد اللّٰه فيلبي في منزله في مكة، فإن الحديقة التي حول المنزل جميلة فتانة، تحبب إلى الإنسان المقام فيها، والاستمتاع بجمالها وروعتها.

والماء في الحجاز كما هو معلوم ومشهور قليل جدًّا، ومطرة واحدة تحيي وتميت، فمن أجل ذلك كان الماء في الحجاز أثمن وأغلى منه في سائر الأقطار، وكان ألذ وأبهج وأعلق بالقلب وأشرح للصدر، ولذلك كان الغصن الأخضر في الحجاز أحلى منه مئة مرة في غيره من البلدان، وهو ما يحمل المسافر في الحجاز أو المقيم به على التلذُّذ بالماء والظل والخضرة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأن نظرة واحدة في موطنه هذا تفوق مثلها في غيره وسواه.

وللمستر فيلبي خادمتان، إحداهما هدية من الملك عبدالعزيز آل سعود، وهي من عبيد الملك وقد بلغني أن لديه مئات منهنّ، والواقع أن الرقّ وإن كان مكروهاً في الإسلام إلا أنه ليس محرّماً، ولكن كراهيته ظاهرة في هذه الدعوة الملحّة بالقرآن إلى التكفير عن الذنوب بإعتاق رقبة، مما يدلّ على غرض الشرع في الإقلال من هذا النوع من التجارة كل الإقلال.

ولقد شاهدت كثيراً من هذا الرقيق في بيوت الأصحاب والأصدقاء الذين زرتهم فوجدتهنَّ يعاملنَ معاملة حسنة، كأنما هنَّ

من أهل البيت، ورأيتهنَّ مسرورات بحياتهنَّ، ولو خيرنَ، ما اخترنَ عن أسيادهنَّ بديلاً.

* * *

٣٠ آذار

لقد حاولت النوم بعد ظهر اليوم فلم أوفق إلى ذلك، لأن أعرابيًّا قام إلى مقربة من المنزل يغني غناء بدويًّا أخذ بمجامع القلب، فذهب النوم من جفوني، وطفقتُ أستمع لهذا الغناء العربي الخارج من قلب الصحراء.

وكان يتحدث إلى حريته المقدسة، وهواه في الجزيرة، وحبه للصحراء، وفي ذلك كله ما يدلك على تعلّق العرب بحرياتهم، ورغبتهم في المحافظة عليها، ودفاعهم عنها كلَّ المدافعة.

وعربيُّ اليوم ما يزال صورة قريبة جدًّا من عربيٍّ الأجيال الماضية، فابن الصحراء ما يبرح باحثاً عن الكلأ والماء، وهو ما يزال محترساً يقظاً قويًّا، يعلم أن عدوَّه يترصد ضعفه، وينتظر غفلة منه، فلذلك تراه مضطلعاً بالخطب الذي يمشي إليه، لا يرهب شيئاً ولا يخشى أمراً.

آجال وأجيال مضت عليه وهذا حاله، ينال غذاءه بالحيلة، ويخط بسيفه طريقه، وينال بالغزو معاشه، حتى ظهر الملك عبدالعزيز آل سعود فبدّل من عاداته، وخضد من شوكته، وفلَّ من غَرْبه، فأصبحت البادية آهلة آمنة، بعد أن كانت مضطربة ثائرة، وأصبحت القوافل تسير فيها مطمئنة هانئة، بعد أن كانت لا تضرب في أرضها إلا في عصبة من المغاوير، وفرقة من البسلاء الأقوياء.

ولعل أعجب أعماله ما خلقه من مزارع حول العيون من الماء في طول الجزيرة وعرضها، مما حمل البدو على انتجاع الأرض موطناً، والنزول في المزرعة الجديدة سكاناً، يعيشون على ما تنبته الأرض الجديدة من كلأ وغذاء وخضر وحبوب.

وزاد الملك عبدالعزيز آل سعود ندًى فأوفد إلى كل مزرعة رجلاً من أهل المعرفة والحكمة يعلمهم فروض دينهم، ويدرّبهم على أصول الحياة الجديدة ويعلمهم القراءة والكتابة، مما يصح أن يقال إنه أمر لا مثيل له في هذه الخاليات من الأعوام.

وليس غريباً، وبعد سنوات قليلة فقط، أن تصبح الجزيرة آهلة من أقصاها إلى أقصاها، مطمئنة عرضها وطولها، لا يرتفع فيها سيف، ولا تقطع في أرضها نخلة، ولا تسرق من صحراواتها غنمة.

* * *

ثم إن في جزيرة العرب من المعادن الشيء الكثير، ومن واجب حكومة الحجاز ونجد وغيرها من الحكومات العربية أن يبادروا إلى القيام بمباحث فنية دقيقة عميقة تكشف لها عن أهمية هذه المعادن وخطرها ومقدارها، كما وأن استئناف عمران جزيرة العرب متوقف على أمرين: **أولهما**: ترقية أحوال الزراعة باستعمال الآلات الرافعة الحديثة واستنباط المياه وبناء السدود، وحفر الآبار الارتوازية وكل ما يزيد في كمية مياه الريّ.

وثانيهما: تعدين المعادن التي في الجزيرة واستخراج أفلاذ هذه الأرض التي طالما كانت تغني سكانها في الأعصر الخالية، وما صلح به أول الأمر يصلح به آخره.

ومع ذلك فإن هذا الملك (البدوي) على رأي بعض خصومه قد أخذ على عاتقه إنهاض الجزيرة وإعادتها إلى ماضيات أيامها، وقد بدأ يأخذ بألوان الحضارة الحديثة، فاستعمل السيارات وأقر المواصلات اللاسلكية، وأدخل الهاتف في بلاده؛ وعبَّد الطرق، وحفر الآبار، وأقام المستشفيات والفنادق، وأمَّن العدل في البادية، ولو كان لمملكته موازنة قوية لأجرى من المشروعات العمرانية في الحجاز ونجد، ما لا يحصيه قلم حاسب، ولا يوفق إلى وصفه خيال كاتب.



ـ ٧ ـ

صديق الحاج ورفيقه

لا بدَّ لقاصد الحجاز من التعرُّف على طائفتين؛ ولا بدَّ أن تكون له علاقة معهما، ولا يكاد يستغني أحد عنهما، وهما المطوِّفون بمكة، والمزوِّرون بالمدينة.

فالحاج ينزل الحجاز غريباً لا يعرف أحداً، فلا بد له والحالة هذه من دليل يدلُّه، ويسعى بين يديه، ويقضي حوائجه، ويرتب له قضية سفره ومبيته، ويعلِّمه مناسك الحج التي يجهلها أكثر الحجاج، أو يعرفون بعضها ويجهلون البعض الآخر، هذا إلى أن هذه المناسك باللُّغة العربية، وأربعة أخماس الحجاج من غير أبناء العرب، فكيف يصنع حجاج هذه الأمم إذا لم يكن هناك بين المطوفين من يعرف لغتهم ويتفهم عاداتهم وأغراضهم، وكيف يصنع زوار المدينة المنورة إذا لم يكن هناك مزوّرون.

والمطوِّف يكاد يكون كالجمل في الحج، لا يستطاع الحج بدونه، يقصد السفينة فيأخذ حاجه بيده، ويضع له حوائجه في الزورق، ويأتي به إلى الميناء ويخرجه إلى البرّ، ويخلص له معاملة تذكرة المرور ومعاملة الجمرك، وليستا بالشيء الهيِّن نظراً للزحام،

ولما يجب على إدارة التذاكر وإدارة الجمرك من التدقيق، ثم إذا أراد الحاجُّ الاستراحة في جدَّة، بيَّته المطوِّف فيها، وأركبه في اليوم الثاني جملاً، وسار به وبغيره من أمثاله، وقد حمل لهم زادهم وماءهم وكل شيء يلزم لهم، وأوصلهم إلى مكة وافرين آمنين، وأنزلهم في منزله مكرَّمين.

وبمجرد وصول الحاج إلى البلد الحرام يأخذ المطوف بيده إلى الحرم فيطوف به سبعاً حول البيت العتيق، ثم يسعى به سبعاً بين الصفا والمروة يهرول فيه بين الميلين الأخضرين وفاقاً للسنة، ويعلمه جميع أصول الحج، ويلقِّنه جميع الكلمات والألفاظ التي ينبغي أن تقال في ذلك المكان الكريم، ويتلو أمامه الأدعية التي يبتهل بها عند مقام إبراهيم، وبين زمزم والحطيم.

ولما كان أربعة أخماس الحجاج هم من الهند والجاوى والترك والأرناؤوط والبشناق والطاغستان والفرس واليمن والزنج، كان على المطوِّف تلقين هؤلاء من أصناف الأمم الأعجمية، صنوف الأدعية والابتهالات والجمل العربية الفصيحة، التي تتشقف بها حلوقهم بقافاتها وحاءاتها، وتتلبك ألسنتهم بضاداتها وتاءاتها، ما لا يقلُّ عن تعب المعلمين للصبيان، وما لا ينبغي أن يستخف بشأنه ولا يستهان؛ وكم مرة يضطر المطوِّف أن يعيِّن للحاجِّ الكلمة أو الجملة وهو يرددها بعكسها ويقلبها من معناها، حتى تنتظم في مكانها، وفي هذا كثير من العناء.

والمطوِّف هو الذي يكفل جميع متاع الحاج وأغراضه منذ يطأ رصيف جدة إلى أن يعود إليه قافلاً إلى بلاده، فيحمله إلى مكة ثم

إلى غرفته ثم إلى المزدلفة، ثم إلى منى، ثم يعود به إلى مكة؛ وإذا أراد الزيارة هيَّأ له جميع أسباب السفر إلى المدينة، وهناك يسلِّمه إلى المزوِّر الذي هو صاحب هذه المصلحة في المدينة لا يتجاوز عليه غيره فيها.

وإذا مرض الحاجُّ فالمطوِّف هو الذي يعلِّله، ويأتي له بالطبيب وبالدواء ويسهر عليه، وإذا مات فهو الذي يخبر الحكومة بذلك، ويأتي بأناس من قبلها، لتجمع في حضورهم حوائجه، ولو سمي المطوِّف كافلاً للحاجِّ لما كان في هذه التسمية مبالغة، ومع كل هذه المشقات التي يتحملها المطوِّف في سبيل حاجِّه، فإنه لا يأخذ عن هذا كله أكثر من جنيه واحد، وإن كان هناك بين الحجاج من يؤدي بدلاً من الجنيه جنيهات عديدة.

ولا شبهة في أن من الحجاج من يؤدي بدلاً من الجنيه الواحد الجنيهات الكثيرة، والمسلمون يغلب عليهم الخير، وقد يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وليس من ينكر أن كثيراً من الحجاج يتعذر عليهم دفع الجنيه الواحد، أو قد لا يبقى في يده شيء ليدفعه إلى المطوِّف، وأحياناً يقع بعضهم في العجز، فلا يتبقى معه إلا ما يكفيه للوصول إلى بلده، فيحرم المطوِّف والحالة هذه من تعبه، أو يضطر لأن يأخذ شيئاً قليلاً جدًّا.

وقد حصل أن ساعد بعض المطوفين حجاجاً معدَمين، ودفعوا لهم نفقاتهم إلى بلادهم، ومن المعلوم أن حج مترَف واحد يعود على الحجاز بفائدة مادية أكثر من حج خمسين شخصاً من المتوسِّطين.

والمطوِّفون يقسمون الحجاج فيما بينهم، فلسكان سورية مطوِّفون، ولمراكش مثل ذلك، وللجزائر غير هؤلاء، وبذلك لا يحصل اختلاف بينهم، ويطمئن كل واحد منهم إلى حقه ورزقه.

وهو تقسيم لا بأس به، إذ إنه يكفل السلام والوئام بين هذه الجماعة، التي ليس لها من مورد رزق، سوى ما يتوفر لها من الحج، ولولا ذلك لهلكت جوعاً، ولكن اللَّه بعباده غفور رحيم.

* * *

والواقع أن الحج لا يزداد ولا تزداد أرزاقه وخيراته إلا بأمرين أحدهما: أمان الطرق، وثانيهما أسباب الراحة.

وقد توفر الأمان اليوم وفي أيام الملك عبدالعزيز آل سعود، إلى حد ليس بالإمكان أن ينكره منكر، وأما أسباب الراحة فهذه لا تزال قليلة، ولكنها أصبحت على كل حال، ترضي المتوسِّطين من الناس ولا يرى بها المترَفون بأساً.

وسيأتي يوم يزداد فيه عدد الحجاج زيادة كبيرة، وهو ما نرجوه ونسأل اللَّه وقوعه؛ لأن في ذلك فائدة عظمى للملايين من المسلمين التي تعيش في أمصار الأرض المتناهية الأطراف، وكلما زاد عدد الحجاج ازدادت العلاقات الاجتماعية والدينية بين الأمم الإسلامية، وكلما ترقى المسلمون ترقى العالم، وازدادت حضارته ارتفاعاً، ومذاهبه الاجتماعية تقدماً وتطوراً في سبيل الكمال والإحسان.

* * *

أما ما يوجهه البعض من زعازع الإلحاد، ومحاربة المدنية الحاضرة للدين والإيمان، فهذا لن يؤثر في الدين ولن يضعف من

شأنه وأثره في نفوس المؤمنين، لأن زعازع الإلحاد مصيرها غالباً إلى الركود، ولن يبرح الدين صاحب الكلمة العليا في الأرض ما دام العلم قاصراً عن تفسير ما وراء الطبيعة، وتحديد هذه القوة التي تسيِّر الأرض وتقرر شؤون الحياة، خصوصاً وأن الإنسان ما يزال ولن يزال بحاجة إلى تفسير غوامض الكون وأغراض الحياة، وهذه لن يجدها بغير الدين، والإيمان بالغيب، والتسليم لمشيئة اللّٰه.

ومهما ترقى الناس في العلوم والمعارف، فإنهم لا يبرحون بحاجة إلى الدين ونورانيته، ولا يزالون يفزعون إليه كلَّما مسَّتهم ضائقة، ولحقت بهم مصيبة، وستظلُّ والحالة هذه مواطن الأنبياء، وأماكن العبادة مناباً للناس يقصدونها من جميع الأصقاع، ويجدون فيها اطمئناناً ورقَّة وعطفاً، لا يجدونها في سواها وغيرها.



ـ ٨ ـ

المرأة في الإسلام

أول نيسان

إني لأجد في نفسي خفَّةً ومرحاً، ولست أنتظر زائراً ولا صديقاً، فلأكتبنَّ فصلاً يضمُّ إلى كتابي هذا، ويكون متعلقاً بموقف المرأة في الإسلام.

الحرم في الإسلام كلمة مأخوذة من محرم، ومعناها الشيء الممنوع، وقد أطلق هذا في الإسلام على المكان المخصص للسيدات من اللاتي لا يصح أن ينظر إليهنَّ، أو يراهنَّ إلا أزواجهنَّ وأنسباؤهنَّ، والحرم ليس سجناً كما يصوره بعض كتاب الغرب، ولا هو ضيقاً ثقيلَ الظلّ، ولا هو يعجُّ على رحبه بالنساء والخدم، فإن هذه أقوال تُرْسَل، وأخبار تُنشر، وليس فيها ما يتعلق بالحقيقة أو يتصل بالأمر الواقع الراهن.

ومن الخطأ أن يذهب واحدنا إلى الظن بأن حجز النساء في موضع خاص من البيت أمر خاصّ بالمسلمين، فإن اليونانيين قد سجنوا نساءهم في منازلهم، ومنعوهنَّ حقوقهنّ، حتى حق الإرث أيضاً، وكان هذا شأنهم يوم كانت حضارتهم ومعارفهم يغمران العالم كله نوراً وغنى.

وكان سكان سبارطا من اليونانيين يقتلون المرأة الضعيفة العاجزة عن أن تلد شباباً أقوياء البنية، ظاهري القوة، مما كان من نتائجه نقص هائل في عدد النساء، حتى أصبحت المرأة ولها سبعة أو عشرة من الأزواج.

ولم يكن حظ المرأة عند الرومان أحسن حظًّا منها عند الإغريق، فقد كان الرومانيون يضعون نساءهم في أماكن معينة من بيوتهم وقصورهم، وكان لهم عليهنَّ حق الموت والحياة، وكانت المرأة في الواقع لا تساوي عندهم أكثر من عبدة أو خادمة.

وكان الزواج أمراً لم يقرَّه القانون عند الفرس، وكان حال المرأة العربية قبل الإسلام مثله عند غيرها من الأمم، ولكنها كانت في البادية أكبر مقاماً وأعظم شأناً، لمساعدتها زوجها في حروبه ومعاركه.

والواقع أن المرأة في البادية لم تكن شخصاً منكور المقام، وكانت الحاجة عظيمة لحراستها والمحافظة عليها، حتى لا يسبيها غازٍ أو محارب، وكان الاعتداء على عرض امرأة يجعل الجزيرة شعلة من النار، ويثير الحرب بين قبائلها السنوات والأعوام.

فلما جاء الإسلام ردَّ للمرأة حرياتها، فإذا هي قسيمة الرجل لها من الحق ما له، وعليها ما عليه، ولا فضل له عليها إلا بما يقوم به من قوة الجلد، وبسطة اليد، واتساع الحيلة، فيليَ رياستها، فهو لذلك وليُّها يحوطها بقوته، ويذود عنها بدمه؛ وينفق عليها من كسب يده، فأما فيما سوى ذلك فهما في السرّاء والبأساء على السواء، ذلك ما أجمله الله وضم أطرافه، وجمع حواشيه بقوله تعالى تباركت آياته: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

وهذه الدرجة هي الرعاية والحياطة لا يتجاوزها إلى قهر النفس وجحود الحق، وكما قرن اللَّه سبحانه وتعالى بينهما في شؤون الحياة؛ قرن بينهما في حسن التوبة، وادّخار الأجر، وارتقاء الدرجات العليا في الدنيا والآخرة.

وإذا احتمل الرجل مشقات الحياة، ومتاعب العمل وتناثرت أوصاله، وتهدم جسمه في سبيل معاشه ومعاش زوجه، فليس ذلك بزائد مثقال حبة عن المرأة إذا وفت لبيتها وأخلصت لزوجها، وأحسنت القيام في شأن دارها.

وفي حديث مسلم عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها وفدت على رسول الله وهو بين أصحابه فقالت:

■ بأبي وأمي أنت يا رسول اللَّه، أنا وافدة النساء إليك، إن الله عزَّ وجلّ بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنّا بك وبإلٰهك؛ إنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فُضِّلتم علينا بالجُمَع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلّ، وإنَّ أحدكم إذا خرج حاجًّا أو معتمراً أو مجاهداً، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟

فالتفت النبي (ﷺ) إلى أصحابه بوجهه ثم قال:

■ هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟

فقالوا: يا رسول الله، ما ظننّا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا.

فالتفت النبي إليها وقال: افهمي أيتها المرأة، وأعلمي من خلّفْتِ من النساء، إن حسن تبعُّل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته؛ يعدل ذلك كله.

وقد عزّ على النساء أن يكون وقت النبي عليه السلام للرجال دونهنّ، فسألنه أن يختصَّهُنَّ بيوم من كل أسبوع، فأجابهنَّ إلى ما طلبنَ فإذا كان يومهنَّ غدون إلى رسول اللّه فجلسن إليه؛ فأقبل عليهنَّ يجيب السائلة، ويهدي الحائرة، ويأخذ بأيديهنَّ جميعاً على النهج القويم والصراط المستقيم.

هذه الحرية الجديدة التي أعطاها الإسلام للمرأة خلقتها خلقاً جديداً، فنبغ بينهنَّ الشاعرات والكاتبات والمفكرات والخطيبات والثائرات، مما لا يذكر له التاريخ مثيلاً، وهذه الحرية التي أعطاها الإسلام للمرأة منذ مئات السنوات، لم تتفضل بها دولة الإنكليز على نسائها إلا في الأعوام المتأخرة.

وعلى الرجال أن يقوموا بإعالة نسائهنّ، وأن يتقدموا لهنَّ بالنفقة بعد الطلاق، وللمرأة أن ترث وتورث، وأن تعمل وتشتغل، فليس في الإسلام ما يمنع ذلك أبداً، والواقع أن حرية المرأة في الإسلام أوسع وأفضل من حريتها عند غيره من الأمم والجماعات.

وكما كان للنساء الأوروبيات صالونات ومنادر منذ زمن قصير فقط، فقد كان لنساء الإسلام منادر وصالونات أدبية وسياسية واجتماعية منذ مئات السنين.

وهذه الظاهرة فريدة في نوعها، وليس هناك من يماثل الإسلام فيها.

فهذه سُكينة بنت الحسين عليهما السلام التي وصفها المسيو برون: «إنها كانت سيدة سيدات النساء في عهدها، وأكثرهن جمالاً ولطفاً وعلماً وثقافة».

كانت تجلس للشعراء والأدباء في قصرها ينفضون ما لديهم من بليغ الشعر، ورفيع النثر، وجميل الأخبار وحوادث التاريخ، وليس من يستطيع نكران هذه المنادر، وأثرها في ذلك العصر، ثم أثرها على العصر الذي بعده.

وهذه المنادر النسائية لا يجب تجاهل خطورتها، وما كان لها من أثر تغذية الحضارة الإسلامية.

* * *

ولقد كتبت اللادي ماري مونتكاد، زوجة السفير الإنكليزي في فروق إلى شقيقتها تقول:

«يزعمون أن المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب، وهو ما أودُّ تكذيبه، فإن مؤلفي الروايات في أوروبا لا يحاولون الحقيقة ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أنني في تركيا، وأنني اجتمعت إلى النساء المسلمات، كان إلى ذلك سبيل، وأني أستمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى، لذهبت أصدق ما يكتبه هؤلاء الكتاب، ولكن ما رأيته يكذب كل التكذيب أخبارهم، ولا أبالغ إذا قررت لك أن المرأة المسلمة وكما رأيتها في الأستانة، أكثر حرية من زميلاتها في أوروبا، ولعلها المرأة الوحيدة التي لا تعنى بغير حياتها البيتية، ثم إنهنَّ يعشنَ في مقصورات جميلات، ويستقبلن من يردن من الناس، ولقد زرت البارحة صديقة لي فإذا

بدارها تغصُّ بالزائرين وكنت في ملابس العيد والرياضة فدهشنَ لرؤيتي ولكنهنَّ لم يترددن في استقبالي استقبالاً حافلاً وتجاهلن لباسي وشأني بحيث لم أشعر بعد دقائق إلا وكأني في منزلي، ولا جرم أن مثل هذه الرباطة من الجأش تظهر من قوم تدخل عليهنَّ سيدة أجنبية غريبة بلباس غريب، لمما يجب الإشارة إليه والتنبيه عليه».

ومما يجب أن يصار إلى بحثه في هذه العجالة؛ هو أن جهل النساء في الإسلام، أمر لا يتفق وأوامر الرسول الكريم، فقد أمر رسول اللّٰه النساء بطلب العلم وحظر الإسلام الجهل على المؤمنين به وشدد في ذلك بما لا يدعو مجالاً للشبهة والتأويل.

لما نزلت دمشق في ربيع سنة ١٩١٤ زرت والي المدينة التركي، فرحبت بي زوجته ترحيباً حارًّا، وكانت على جانب عظيم من اللطف والدماثة، والثقافة والمعرفة، وكانت تعرف أربع لغات، وتكتب وتقرأ وتنشر مطالعتها وآراءها في الصحف الأجنبية خصوصاً الإنكليزية منها، وكان زوجها يثق بها ثقة عظيمة، ويقدر ذكاءها ويستشيرها في شؤونه وأغراضه.

* * *

ولما كنت الآن في مكة، فإني أرى من واجبي تكذيب هذه الشائعات المنتشرة في أوروبا بشأن (الحرم) ذلك أنني قد علمت وأنا في المدينة وفي مكة، بأن جلَّ الناس فيهما، إن لم أقل كلَّهم ليس لهم غير زوجة واحدة، وأن هذه الزوجة تقوم بواجباتها المنزلية في صباح النهار وأطرافه؛ حتى إذا انتهت من أعمالها استقبلت صديقاتها

وصويحباتها، وخرجت معهنَّ للتنزه والرياضة، وهي مسرورة كلَّ السرور بحياتها وبيتها.

وقد خطب صاحب السعادة حافظ وهبه سفير الملك عبدالعزيز آل سعود في لندن يوماً فقال:

«وإنه لخطأ بيِّنٌ أن يذهب البعض إلى الاعتقاد بأنَّ قلب العربي في الصحراء لا ينبض لغير الحرب والغزو، والواقع أن الأمر غير ذلك وأن هذا القلب يتحرك للحب والرحمة والحنان وغير ذلك».

وتحدث السفير الشيخ حافظ وهبة عن الملك عبدالعزيز آل سعود وحبه لزوجته ذات العصمة المرحومة (جوهرة) وكيف أنه ما يذكرها إلا ويبكي لذكراها، وأن مقصورتها في قصره في الرياض لا تزال مقفلة لا يستعملها أحد ولا يدخل عليها أحد، وأن حبه لها ظاهر في حبه الشديد لولديها محمد وخالد.

ـ ٩ ـ

ليلة في المسجد الحرام

٢ نيسان

أخذت مكّة تعج بالحجيج، اليوم، فلا يستطيع السائر في شوارعها وأسواقها مروراً وكل ينتظر الساعة المعينة للذهاب إلى (منى) على الشقادف والجمال.

لقد منع الملك عبدالعزيز آل سعود مسير السيارات في مكّة، حتى لا تزحم الناس وهم يسيرون في الشوارع جيئة وذهاباً، ويمتطون جمالهم ونياقهم لهذا الغرض، وكم سررت لما التقيت صدفة الباشا المغربي، وهو في ملابس الإحرام، وقد كدت لا أعرفه لأول نظرة لما بين لباسه هذا ولباسه السابق من فروق واختلاف.

ولعمري لقد غمرني العجب لما رجعت إلى المنزل الذي أنا ضيفة فيه، فوجدته غاصًّا بالناس والأولاد والنساء، وقد أخبرتني ربة البيت أن أهلها وأهل زوجها قد نزلوا كلهم في منزلها في طريقهم إلى منى وعرفات، وأن كل غرفة من غرف المنزل تغصّ بالناس، وليس هناك مكان واحد يستطيع المرء أن ينزل فيه، فحمدت

الله أنهم تركوا لي غرفتي لوحدي، وأنهم لم يتعرضوا لها بخير ولا شرّ.

* * *

٣ نيسان

لقد مضى اللَّيل كلُّه والجمال تنقل الحجيج من مكة إلى منى، وكنت أسمع أصوات الجمال والحجيج تعلو في ظلام اللَّيل، مما كان يستحيل معه النوم، أضف إلى ذلك روعة الحجِّ نفسه، وتفكير المرء في قربه منه، فإن هذا كله كان يمنع النوم عن الوصول إلى جفني.

لقد غادرت فراشي قبل الصبح بساعة فذهبت ومصطفى نظير إلى المسجد الحرام، لنطوف حول الكعبة الطواف الأخير، وكان الناس يجأرون بالدعاء، وينادون اللَّه في جنح الليل، وكان أكثرهم في حالة اضطراب ظاهر، وخشوع بيِّن.

وكان الحجيج يزاحمون بعضهم بعضاً للوصول إلى الحجر الأسود ليقبِّلوه، وكان يحرس الحجر جنديان يدفعان الناس، ويحاولان إعادة النظام، فلما رأيت ذلك وعلمت استحالة وصولي إلى الحجر قلت لصديقة لي وقفت إلى جانبي:

- إن في قلبي ما يحفزني لتقبيل الحجر، ولكن ما أراه من الزحام حوله يمنعني عن التقدم، ويحملني على مغادرة المسجد دون الوصول إلى رغبتي هذه.

فقالت لي: أما أنا فسأتقدم لتقبيله.

فرجوتها بحرارة أن لا تفعل، مخافة أن يصيبها أذًى من هذا

الزحام الشديد، لأن هذه الرغبة الملحَّة التي رأيتها في الحجيج كانت قوية شديدة، بحيث كان من المستحيل على أحدهم أن يترك مكانه لرفيقه، ولو كان هذا الرفيق سيدة من السيدات.

وفي هذه الفترة تقدم إلينا شابٌّ قدمته صديقتي إليّ قائلة:

■ هذا شقيقي.

وقد جرب شقيقها أن يثنيها عن عزمها فلم يفلح، وأصرَّت على التقدم نحو الحجر الأسود، فاضطررنا جميعاً إلى النزول عند رغبتها وتقدَّمنا، يساعدنا في ذلك مطوِّفي، وشقيق صديقتي، ولكن الوصول إلى ما أردنا كان مستحيلاً، فقد اضطررنا بعد دقائق إلى الارتداد إلى مكاننا الأول، وأخذنا ننظر إلى الناس وهم لا يزالون يتدافعون ويبتهلون.

لقد غمرت روعة الإسلام والدين الناس، وامتلأت القلوب خشوعاً وتقوى، ورغبة في التقرب من اللّه، فلا سبيل والحالة هذه إلى الوقوف في وجه هذه الخلائق العديدة من البشر.

وفجأة علا صوت الأذان من المنارات الخمس، فعمَّ المدينة كلها، وبلغ بطاحها وأغوارها وأنجادها وجبالها، وعندئذ خفَّت جلبة الحجيج، وأخذوا يستمعون إلى الدعوة للصلاة، تنادى المؤمنون إلى ذكر الله والوقوف بين يديه، وإذا الناس يقفون صفوفاً صفوفاً حول الكعبة، وإذا السكون يغمر البيت كله، ويغمر مكة جميعها، فلا يستمع الواحد إلا إلى هذه الحركة تصدر عن المصلي، وهو يقف ويسجد خاشعاً بين يدي الواحد الأحد.

ذلك مشهد ما رأيت مثله في الحياة.

***

«اطلبوا العلم ولو بالصين».

هذه كلمة النبي العربي ﷺ إلى المؤمنين، أوجب عليهم فيها طلب العلم من أقصى الأرض إلى أقصاها.

وهي كلمة ألقاها محمد وأمر بها منذ مئات السنين، للَّه هي من كلمة ما أجملها وأروعها وأعظمها، ولكن العالم الأوروبي لم يتفهم خطورتها ولا اتبعها حتى القرن الثالث عشر، وبعد سبعة قرون من صدورها، فإن أدوارد الأول ملك الإنكليز، منع روجر باكون الفيلسوف الإنكليزي من البحث في الكيمياء، والمحاضرة بها في جامعة أكسفورد مركز العلم في عاصمة الإنكليز.

ولم تكتف حكومة لندن بذلك بل نفت هذا الفيلسوف إلى باريس، وجعلته فيها تحت رقابة الكنيسة، وقد كان من الخرق وقصر النظر انصراف باكون في هذا القرن إلى بحث المعرفة، وتفسير أسرار الحياة، ذلك أن الناس في عهده كانوا يعتقدن أن بحث المعرفة معناه الاتصال بالشياطين، ولذلك راحوا يصيحون به قائلين:

■ «فليسقط هذا الساحر، فليسقط هذا المسلم».

وسبب ذلك أن الإسلام الذي كان يقف في هذا العهد كشعلة للمعرفة والعلوم والكيمياء والجبر وغيرها، وهي علوم كان الناس يعتبرونها من علوم الأبالسة لا من متعلقات البشر.

ولكنهم عادوا فأطلقوا سراحه، وتركوه يسير سبيله في العالم يبحث عن المعرفة، ويسعى للوصول إلى دقائقها وأسرارها، وقد وجدها، ولكن أين وجدها؟ لقد وقع عليها كما يقول المؤرخون في

جامعات إسبانيا الإسلامية، وكذلك عرف كولومبوس في هذه الجامعات نفسها أن الأرض مدوَّرة، وإن كانوا أجبروه بعد ذلك على إنكار نظريته هذه.

ومن الحق أن يقال إن الجامعات الإسلامية في هذا العهد سواء في ذلك الجامعات في إسبانيا أو في بغداد، كانت ترحب بطلاب المعرفة من اليهود والنصارى، وكانت نفقات دراساتهم هذه تصرف من خزانة الدولة المسلمة، وقد استفاد مئات من شباب أوروبا من هذه الرعاية والحرية، فانتظموا في هذه الجامعات ونالوا شهاداتها، وتلقوا علومها ومعارفها.

وفي هذا دليل على أن الإسلام لا يعرض لمعتنقي الأديان الأخرى بسوء، ولا يحملهم على قبول دينه والنزول تحت شرعته، وهو إلى ذلك كله لم يقف في سبيل العلم والمعارف، بل سعى لتعزيزها وإعلاء شأنها، ونشرها وذيوعها، كما أنه لم يحارب الذين لم يعتنقوا دينه، ولا عمل على قتلهم وحرقهم وتعذيبهم، كما فعل غيره وسواه. وآية القرآن الكريم ظاهرة بينة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

وأما احترام الإسلام للمسيح عليه السلام فمشهور معروف فهو نبيٌّ من الأنبياء؛ وعظيم عند الله من المقرَّبين، كمحمد وموسى وإبراهيم وغيرهم، وإني لأذكر عجب ابنة عمي لما كنا في دمشق وبيدها الإنجيل تقرأه، فراح أحد الشيوخ يأخذه منها ويضعه على رأسه احتراماً وإكراماً.

ولقد كان موقف النجاشي المسيحي من الإسلام موقفاً شريفاً مبجلاً، وذلك لما نزل أرضه المهاجرون من المسلمين الأولين،

وأخذ يسألهم عن دينهم، فقرأوا عليه سورة مريم، فملكه العجب وراح يقول:

■ ليس بين الإسلام والمسيحية إلّا شعرة واحدة.

ولكن مما يؤسف له أن القرون التالية راحت تزيد التفرقة بين الديانتين، وتقيم الخنادق والحصون بين الأمتين، حتى أصبح بين الإسلام والمسيحية فروق عظيمة لم تكن في القرون الأولى، ولا هي من الدين الحقيقي في شيء أبداً.

* * *

وهذا عمر بن الخطاب ﷺ لما دخل بيت المقدس فاتحاً ظافراً؛ وأخذ يمشي والبطريرك زعيم النصرانية جنباً إلى جنب، يحدثه ويسأله ويناجيه ويحاوره، ولما أدركته الصلاة وكان في داخل كنيسة القيامة خرج منها وصلى خارجها، ولما سأله البطريرك عن سبب ذلك قال له:

■ أخشى أن يتخذ المسلمون بعدي من صلاتي هذه في الكنيسة حجة لقلب الكنيسة إلى مسجد، فيخرقون المعاهدة بذلك، ويروجون في خرقها إلى أنهم إنما تأثروا أثري، وفعلوا ما فعلت.

وبذلك حفظ الفاروق للمسيحية كنيستهم الأولى، وسمح لها بأن تكون حرَّة لأصحاب الديانات الثلاث، الذين كانوا يجلّونها ويحترمونها.

* * *

وتدور الأيام دورتها فإذا بالصليبيين ينزلون البلاد المقدسة فاتحين، بحجة تحرير البلاد ورفع شأن الصليب، ولو كانت رغبتهم هذه صحيحة، وكان الصليب في خطر لهان الأمر، ولكن التاريخ يدلنا على أن رغبة الفاتحين كانت ترمي إلى أغراض دنيوية أكثر منها إلى أغراض دينية، خصوصاً وأن هذه الحروب قد نالت المسيحيين في سورية وفلسطين بمثل ما نالت به المسلمين من شر ونكر، حتى أن بعض المدن المسيحية خصوصاً في هنغاريا اضطرت للمدافعة عن نفسها ورد هجمات الصليبيين عنها في طريقهم إلى الشرق.

ولكن أشد ما يؤلم النفس ويثير الخواطر، ما تولى به الصليبيون بيتَ المقدس من تدمير وإحراق وقتل لما دخلوه فاتحين، وقد قتلوا من سكان المدينة ما يزيد عن سبعين ألفاً من المسلمين والمسيحيين واليهود، ولم يعفّوا عن الأطفال والنساء، فذهب الجميع طعاماً للسيف والنار.

وبذلك تسلَّم الصليبيون المدينة خراباً يباباً وقد كانت قبل نزولهم بلداً عامراً، وموطناً اجتمعت فيه ثقافة الأجيال، وحضارة العالم في ذلك العهد.

ولما استرجع السلطان صلاح الدين بيت المقدس بعد معارك عديدة؛ وطرد الصليبيين من البلاد، أظهر في حروبه ومعاركه كل ألوان الرفق والرحمة والعطف والعفو عند المقدرة، وقد حفظ له كثير من كتاب الغرب هذه الصفات، ولم يتأخروا عن المجاهرة بها، والإقرار بأنه كان أشرف الأعداء، وأطهر الفاتحين.

ومما يجب أن يصار إلى ذكره أن صلاح الدين لما افتتح

القدس وكانت أفعال الصليبيين الدامية بأهلها لا تزال ملء السمع ملء البصر، أبى أن يعامل المغلوبين إلا بالحسنى والرفق، ورفض الانتقام من الذين أساءوا وأحرقوا ودمروا، وزاد ندًى فسمح لجميع المسيحيين بمغادرة المدينة تحت رعاية رجاله ومحافظة قواده.

ولكن هذه الأخلاق الشريفة لم يقابلها الصليبيون بالمثل، فلما تمكنوا من دخول عكا بعد حصار دام سنتين، وبرغم وعودهم لأهلها قبل تسليم المدينة، بأن لا يتعرضوا لهم بأذى ولا ضيم، أمر الملك ريشارد الإنكليزي بقتل ثلاثة آلاف مسلم، وهي وصمة لا يستطيع مؤرخ أن يتناساها، أو يعذر فاعلها عليها، لأنها وصمة جرت بعد الانتصار والفتح، وهو ما كان يجب على الملوك أن تربأ به؛ أو تقع بمثله.

ـ ١٠ ـ

إلى عرفات

٤ نيسان

الناس هذا الصباح في مرح وفرح عظيمين، وقد تقدمت إليّ النساء من ضيوف المنزل يهنئنني على فريضة الحج التي كانت أمامي، والتي كنت معتزمة أداءها، ولما كنت سأغادر مكة إلى منى بعد ظهر اليوم نفسه؛ فقد رأيت أن لا أرتدي ملابس الإحرام إلا في الساعة الأخيرة، وكان الجمل الذي يحمل أغراضي وحاجياتي قد سبقني إلى منى، حيث صار الاتفاق على قضاء الأيام فيها فوق سطح أحد المنازل، تخلصاً من أزمة المساكن التي تصبح من المسائل الصعبة الحلّ في مثل هذه الأيام.

وكان مضيفي قد استأجر منزلين أحدهما للنساء من أهله وضيوفه، والثاني لأولاده والرجال من أصحابه، وقد ترك لي سطح منزل النساء أستمتع به لوحدي، وكان هذا أمراً مرضياً حسناً.

وبعد تناول طعام الغداء ذهبت إلى غرفتي لارتداء ملابس الإحرام، ولكني ما كدت أفعل ذلك حتى خفق بابي ودخل نساء المنزل وكلهن بملابس الإحرام، علي، وكانت بينهن والدة مصطفى

خادم المستر فيلبي التي قدمت من جدة البارحة، والتي وعدت ابنها بأن أحملها معي إلى منى في سيارتي الخاصة؛ ولكني لما عرفت بأنها حملت نرجيلتها معها أسقط في يدي، لأنني لم أكن أريد تجاهل قوانين الحكومة المحلية التي كانت تحظر التدخين، ولكن مناقشة هذه السيدة المتقدمة في السن، كان أمراً فوق الطاقة وفوق الإمكان.

وأخيراً تحركت السيارة إلى منى، وكان الطريق يعجُّ بالحجيج والسيارات والجمال وأنواع الحيوانات التي يسهل ركوبها وبطوق الإنسان أن يستعملها، وكان المكان الذي اتخذته لنفسي مكاناً لطيفاً حسناً كثير الهواء جميل المناظر.

فلما انتهيت من ترتيب شؤوني في مقرِّي الجديد نزلت إلى الدار، فإذا بها مليئة بالنساء والأولاد، فرحت أفكر كيف يستطيع كل هذا الجيش النوم سوية في هذا المكان الصغير وكان النساء قد جلسن على الأرض، وأخذن يتحدثن، بينما أخذت العجائز منهنَّ بترتيب (نراجيلهن)، ورحت أنا بدوري أتطلع من النافذة أشاهد جماعات الحجاج تمرّ من أمامي وهي صامتة ساكنة.

وكان للملك عبدالعزيز آل سعود قصر في منى، يستقبل فيه ضيوفه من الحجاج أصحاب المقامات، حيث يأخذ معهم بأطراف الحديث سائلاً إياهم عن أمصارهم وبلدانهم وسياستهم وأخبارهم مما يكون له أبعد الأثر في توطيد العلاقات وتعزيز الصلات بين مختلف الشعوب العربية، ويؤسفني أن لا يكون باستطاعتي حضور مثل هذه الاجتماعات، والاستماع إلى ما يجري فيها من حوار وأحاديث.

* * *

٥ نيسان

أفقت اليوم على صوت المؤذن، فتحممت؛ وصليت ركعتين ثم أسلمت نفسي للنوم ثانية، وبعد ساعتين غادرت فراشي، لما سمعت مضيفتي تدعوني، فنزلت إلى صحن الدار حيث مسحت وجهي ويديّ بالماء ثم أكلت قليلاً، وبعد فترة من الزمن ركبت سيارتي في طريقي إلى عرفات.

وقد رأيت أن آخذ معي كتاباً بالإنكليزية عن بلاد العرب، لعلمي بطول الطريق، وبعد الشقة، وتقدم الناس فيها ببطء وتؤدة، وبينما أنا غارقة في القراءة سمعت صوتاً يقول:

■ هل هذا الكتاب عربي؟

فالتفت سليمان سائق سيارتي إلى المتكلم وقال:

■ إنه كتاب عربي طبعاً.

فقال المتكلم:

■ أوتَقسم على ذلك؟

فهمس سليمان بأذني أن أقفلي الكتاب، ولكنني رفضت ذلك وقلت للمتكلم بالعربية:

■ إن الكتاب بالإنكليزية، وأنا إنكليزية مسلمة، في طريقي للحج بأمر من الملك.

فغمر المتكلم العجب، وبعد برهة لم يزد على أن قال:

■ الحمد لله...

وبينما نحن في طريقنا إلى عرفات وصلنا إلى المكان الذي

وقف فيه أبرهة قائد الجيش اليمني في طريقه لهدم الكعبة، وذلك في السنة التي ولد فيها محمد ﷺ، وكان يتقدم جيش أبرهة فيلٌ عظيم، فأطلق المؤرخون على العام كله اسم عام الفيل.

* * *

وأعود بالفكر إلى ماضيات الأعوام، ويوم أصبح سدنة الكنيسة في عاصمة اليمن، فإذا كنيستهم قد لطخت بالقاذورات وألقيت فيها الجيف وانتهكت حرماتها، وكيف رفعوا أمرهم إلى الملك، وهم يزعمون أن هذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يأتون من الحجاز حيث لهم بيت يقدسونه ويحجون إليه ويسمونه الكعبة، فيغضب الملك لذلك غضباً عظيماً، ويقسم ليهدمنَّ هذا البيت، وليحملنَّ العرب على أن يحجوا إلى كنيسته بالسيف والدم، ويبعث إلى النجاشي يطلب منه أن يمدَّه بالجند والفيلة، فلما تهيأ له ذلك كله، مشى إلى الحجاز في جيش لم ير العرب مثله قبل اليوم، حتى إذا وصل إلى مكة تقدم إليه زعماء القبائل العربية يقدمون إليه طاعتهم ويعرضون عليه ثلث أموالهم، ويطلبون إليه أن يدع بيتهم هذا ولا يمسه بسوء، فلا يسمع الملك منهم، ولا يحفل بهم، ويرسل طلائعه تغير على ما حول مكة من الأرض، وتستاق كل ما تجد فيها من مال وماشية، حتى إذا كان الغد أرسل الملك جماعة من أصحابه إلى مكة وكلفهم أن يسألوا عن سيدها وعظيمها، فإذا لقوه أنبؤوه بأن الملك لا يريد قتالهم ولا حربهم وإنما يريد أن يهدم هذا البيت، فإن خلَّوا بينه وبين البيت فهم آمنون وإلا فليأذنوا بحرب تسحقهم سحقاً، وأمر الملك سفراءه أن يأتوه بعظيم قريش.

ويمضي السفراء ثم يعودون برجل عظيم ملء بردتيه الجمال والمهابة، فإذا ما رآه أبرهة أكبره وأدناه منه، وجلس معه على البساط مخافة أن ترى الحبشة في جلوس هذا معه على سريره رأياً لا يرضاه كبارها وأصحاب المقامات فيها.

ويسأله الملك عن حاجته فيطلب منه أن يرد إبله إليه، وكانت طلائع أبرهة قد أخذتها حين اجتاحت ضواحي مكة، فيعجب الملك لذلك ويحاوره هازئاً:

■ لقد كنت أنتظر منك أن تسألني الكفَّ عن هدم هذا البيت الذي تكرمونه وتحجون إليه، فإذا بك تسألني عن إبلك.

فيقول له عبد المطَّلب: أنا ربُّ الإبل فلست محدِّثك بسواها، وأما البيت فإن له ربًّا يحميه.

ويرد أبرهة الإبل لعبد المطلب، ويخرج هذا بإبله فيرسلها هدياً إلى هذا البيت الذي أبى أن يحدث الملك بشأنه ويمضي إلى قومه من قريش فيأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب وعلى رؤوس الجبال، وإذا مكة قد خلت من أهلها، وقامت بيوتها هادئة ساكنة، يظللها حزن عميق فيه هيبة وجلال.

فإذا أصبح أبرهة أمر جنوده بدخول المدينة، وأمر فيله بالتقدم نحوها، فيأبى الفيل التقدم نحو الكعبة، ويبرك في مكانه لا يتحرك ولا يبالي، ويجدّ ساسته في إنهاضه فلا يوفَّقون، وإذا الجيش قد تولاه الذعر والخوف، وإذا الجو يظلم شيئاً فشيئاً، وإذا سحاب كثيف يبدو من بعيد مقبلاً من ناحية البحر، وإذا هذا السحاب حيًّا يخفق بأجنحته خفقاً، ويبعث منظره في النفوس روعة ودهشة ووجلاً

وخوفاً، وإذا هو مؤلف من طيور صغار لها مناقير الطير وأكف الكلاب، حتى إذا دنت من الجيش أخذت تحصبه بحجارة دقاق كانت تحملها في مناقيرها وأرجلها. وكانت على دقتها لا تمس شيئاً إلا هشمته تهشيماً؛ ولا تمس رجلاً إلا ألقته صريعاً، وإذا الجيش يمتلىء ذعراً وإذا أفراده يتفرقون في أديم الجزيرة هرباً، وإذا أبرهة قد مسه حجر فصرعه، فحمله بعض رجاله وهربوا به مجدِّين، حتى بلغوا اليمن به، وما يكاد يبلغ قصره حتى يأخذه اللّٰه إليه.

ذلكم حديث الفيل، وتلكم قصته، وإن فيها لطرافة وظرفاً وجلالاً، وإن فيها لدلالة على محافظة اللّٰه على هذه البلدة المباركة وحراسته لكعبتها.

* * *

بعد ساعات وصلنا إلى عرفات.

لقد كانت أرض عرفات تعجُّ بالناس، وكان فيها ما يقرب من مئة ألف حاج، نصبوا فيها خيامهم، فكان يستقبل القادم إليها منظر ليس مثله طرافة وجمالاً وروعة.

وليس بطوق المرء أن ينسى منظر عرفات ليلاً، فهي من أبهج ما يرتسم في خاطر المرء، ويخلد في ذاكرته.

ولعمري ليجدنَّ القادم إليها أمام ناظريه سماء تشع بالكواكب، وأرضاً تعج بالنيران والمشاعل، منظر يستهوي الأفئدة، ويعلق بالقلوب، فلا يستطيع المرء عنه انفلاتاً، ولا يزداد به إلا ابتهاجاً، وليست عرفات في النهار بأقلَّ حسناً وجلالاً في تموج جموعها وتراصِّ قبابها، ولا سيما في مناظر الخشوع التي تأخذ بالألباب، ومسامع الأدعية التي ليس بينها وبين الله حجاب.

ولعمري ليس في العالم دين يستطيع أن يجمع أتباعه في أيام معدودات من كل عام في هذا الصعيد الواحد، وعلى هذا الأديم من الأرض، وأكثرهم يضطر للوصول إلى هذا المكان أن يقطع مئات الألوف من الأميال مما لا تتحمله مقدرة المرء، وتكاد العصبة تنوء تحت أعبائه، ولكن الإسلام دينٌ حيٌّ، حيٌّ في قلوب أتباعه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادته حيويته؛ وقوي أمره، وتبسَّط سلطانه، وفشت دعوته، ولولا ذلك لما أمكنه أن يعيش وأن يظل محتفظاً بقوته وتأثيره وحب أتباعه له.

ولقد تفضل مضيفي فدعاني إلى خيمته الكبيرة التي نصبها على جبل عرفات، والتي خصّها بأصدقائه وأولاده، فتقبلت الدعوة شاكرة، إذ إنها كانت منصوبة في مكان يستطيع فيها المرء أن يبصر كل شيء ويشاهد كل ما أمامه وما خلفه.

فلما كانت صلاة الظهر صليت وحدي، وقد وليت وجهي شطر البيت الحرام، فلما انتهيت قام الرجال إلى صلاتهم، ثم أخذوا يقولون: «لبيك اللَّهمَّ لبيك» يرددونها عدة مرات، فلما انتهوا من ذلك أخذ أحدهم يقرأ القرآن بصوت رخيم جميل، فتولانا جميعاً الخشوع، وتناسينا الدنيا وما فيها.

* * *

عدنا إلى أنفسنا بعد فترة من الزمن على أصوات الجلبة والضجيج تصعد على مقربة منا، فنظرنا إلى سبب ذلك، فعرفنا أن حرس الملك عبدالعزيز آل سعود يوسع للملك سبيلاً في طريقه إلى جبل الرحمن، فلما مرَّ من أمامنا وهو في سيارته الخاصة، تمكنت

من رؤية الملك الذي استطاع بجده وحزمه وذكائه أن يجعل لنفسه مقاماً عظيماً بين ملوك العرب.

وكان الحرس الخاص بالملك عبدالعزيز آل سعود يحيط بسيارته، وقد سار خلف السيارة شخصيات كثيرة عرفت منها السيد (فان دربول) الصيرفي الهولندي المشهور، الذي رأيته في السفارة الإنكليزية في جدة، والذي اعتنق الإسلام منذ سنوات، والذي أخذ على عاتقه زيارة الأراضي المقدسة في موسم الحج من كلٍّ عام.

* * *

ومن حق المرء أن يذكر نعمة اللّه عليه يوم عرفات وأيام الحج، فإن عدد الحجاج كان يضطرب عادة في السنوات الأواخر بمائتي ألف نسمة، يضطرون للوقوف تحت الحرّ الشديد، والشمس المشتعلة في معظم النهار، وفي أشدّ ساعات النهار شدة واشتعالاً، ومع ذلك فإن الذين أصيبوا بمرض من بين هذه الآلاف، لا يتجاوزون المائتين والخمسين شخصاً، كما أن أحداً منهم لم يكن مصاباً بداء معدٍ، وكان من الحق، وتحت هذا الحر الشديد وبعد هذا التعب الذي يعانيه الحاج في سفره، وطوافه وانتقاله، أن يصاب نصف هذا العديد بمرض، أو يقعوا تحت الإعياء والنصب، ولكن ربك رحيم بعباده، عطوف على المؤمنين به.

* * *

ولعمري إن يوم الحج في عرفات ليشبه يوم الحشر في كثرة العديد، ووفير العدد، ولكنه حشر للثواب، مغمور بالرحمة، مبشر بعناية اللّه ورضوانه.

يقف الحجيج فيه خاشعين باكين، وإلى اللَّه ﷻ متضرعين وقد علا التكبير، وارتفع ضجيج الناس بالدعاء؛ فلا يرى المرء يوماً أكثر دموعاً، ولا يجد في مثله قلوباً خاشعة، ولا أعناقاً لهيبة اللَّه خاشعة خاضعة.

ويبلغ الخشوع أشدَّه حين يقف الإمام فوق جبل الرحمن يدعو وينيب، فترتجُّ الأرض عند ذلك، وترتفع الأيدي بالتكبير والدعاء، فيا له موقفاً ما أهول مرآه، وأرجى في النفوس عقباه.

* * *

وكيف للقلم بوصف طريق عرفات، وما فيه من قباب وسرادقات، ومناظر شائقات، وكم ترى طريق البيت الحرام من راكب وفارس وحاف وناعل، وكم تطهرت نفوس، وصفت قلوب، وزكت أعمال، وكفكفت دموع.

هذا الحج قد انتهى، وهذا المليك عبدالعزيز يعود أدراجه من جبل الرحمن، وهؤلاء الناس قد أخذوا يعودون من حيث أتوا، وقد غمر النفوس ارتياح، وملأها انكسار ورقة، إذ قامت بواجبها، وأخلصت لربها، وابتهلت لسيد الوجود اللَّه الواحد الأحد لا إلٰه إلا اللَّه.

وكذلك عدنا إلى منى لقضاء بقية المناسك، فأكملت بعدها حجِّي وقد ألقي في روعي أنني قمت بواجبي حقًّا.

* * *

وأعود إلى نفسي فأفكر في هذا البلد القاحل، البعيد عن العمران، الغريب عن الحضارة، كيف جعل اللَّه له بدعوة

إبراهيم عليه السلام أفئدة من الناس تهوي إليه، وتنفق عليه، وذلك منذ مئات السنين وآلاف الأعوام، فلا تكاد تسير في مكة أو المدينة إلا وتقع على أثر فيها لأكابر الأجواد، وسراة الأمجاد، ولا تكاد تفتح كتب التاريخ حتى تجدها مليئة بأخبار الأجواد من الذين تولوا الحجاز وأهله، بالعناية والرفق والمعروف، مما يفوت عددهم عن الإحصاء، وكل هذا من فضل اللّه وعنايته ورحمته على هذا البيت وأهله، حتى إذا جاء المرء بعد مئات الأعوام وجد أن آثار الماضين لا تزال مخلَّدة، وأخبارهم بألسنة الشكر مجددة، ولا شك أن التاريخ إنما يشرف ويكرم بمثل هؤلاء وأعمالهم، من الذين جعلوا أنفسهم مصداق الحديث الشريف:

«الخلق كلهم عيال اللّه، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله».

* * *

فتأمل والحالة هذه في هذه الخيرات العامة التي تملأ البلاد المقدسة، وتغمرها من أقصاها إلى أقصاها، وليس أحدها من صنع أهلها وأبنائها لأن أهلها يعجزون عن ذلك، وليس بطوقهم من هذا شيء، إنما كلها من صنع أهل البر والإحسان؛ في مختلف الأقطار والأمصار، حتى إذا جاء واحدنا يتأمل فيما أجراه هؤلاء من خير، وما أغنوا من فقر، وما آووا من قفر، وما آمنوا من خوف، وتبصرنا في ما شادوه من الفنادق في الطرقات، وما بنوه من المنازل في الفلوات، وما صبُّوا على هذه المؤسسات من الأوقاف الدارَّة والأموال الوافرة، أحس المرء منا بنعمة اللّه على هذا البلد، ورحمته به، وحفظه له، ومحافظته عليه.

ـ ١١ ـ

روحانية الإسلام

طلبت من جلالة الملك **عبدالعزيز آل سعود** وقد انتهيت من حجي أن يسمح لي بالسفر، فتفضل وسمح لي به، فغادرت منى إلى مكة بعد أن ودعت مضيفي وزوجه وأصدقائي وداعاً حارًّا، وشكرت لهم ما تفضلوا به عليّ من العناية والرعاية.

وسارت سيارتي في طريقها إلى مكة تنهب الأرض نهباً، وكان الطريق مقفراً أو يكاد، فلما أشرفت على مكة وجدتها هادئة ساكنة، ليس فيها أنيس ولا صديق، وإذا كلُّ أهلها قد غادروها إلى منى لقضاء فريضة الحج، وإذا بي أجد نفسي لوحدي في بيت اللَّه الحرام.

ولما وصلت إلى منزل مضيفي أخذت في جمع أمتعتي، بينما ذهب مصطفى نظير إلى المسجد واعداً بأن يرجع إليَّ بعد ساعة، وما هي إلا دقائق حتى انتهيت من شأني، فوقفت أمام النافذة أسرِّح النظر منها على هذه المدينة الساكنة الخالية، ثم تناولت كتاباً بالإنكليزية عن الإسلام، ينتقد فيه مؤلفه الدين الإسلامي، ويتهمه بأفظع التهم، فلم أتمكن من قراءة بعض سطوره إلا بمقدار، ثم

رميته جانباً، وتناولت القرآن الكريم أقرأ فيه سورة (النور) الجميلة:

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

والواقع أن جمال القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته، وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب، ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأي مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال:

■ «إذا لم يكن شعراً، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخاً ولا وصفاً؛ ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل، ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطباً فلسفية كمحاورات أفلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالميًّا في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته، حتى إنه يردد في كل الأصقاع، ويرتل في كل بلد تشرق عليه الشمس».

ولقد أشار الدكتور ماردريل المستشرق الفرنسيّ الذي كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه قال:

■ «أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عزَّ وجلَّ وعلا،

ذلك أن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلٰهيًّا، والحق والواقع أن أكثر الكتّاب ارتياباً وشكًّا قد خضعوا لسلطان تأثيره وسحره، وأن سلطانه على الثلاثمائة مليون من المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل المبشرين الأجانب يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتدّ فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن.

«ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو والأعراب كان نثراً كثير الطرافة يفيض جزالة في اتساق منسق، متجانساً، مسجعاً، وكان لفعله الأثر العميق في نفس كل سامع يفقه العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع، الذي لم يسمع بمثله بلغة أخرى، وخاصة اللُّغة الفرنسية الضيقة القاسية والتي ليست في الواقع لغة دينية، ولا استعملت قط للتعبير عن الألوهية والإلٰهيات».

هذا هو الكتاب الذي خلق العرب خلقاً جديداً، ثم وحَّد صفوفهم ودفعهم إلى العالم فاقتحموه وحكموه، وعملوا فيه على نشر حضارتهم وثقافاتهم وفلسفتهم بينما كانت أوروبا المسيحية تتخبط في جهل فادح، واختلاف داهم.

* * *

والواقع أن للقرآن أسلوباً عجيباً يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فحسن تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة

ما يملأ القلب روعة، لا يملُّ قارئه؛ ولا يخلق بترديده، يسجع أحياناً ولا يلتزم السجع، ويوازن ولا يلتزم الموازنة قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلَّ أن تجد فيها غريباً، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا تحسّ فيها لفظاً نابياً عن أخيه؛ فإذا أضفت إلى ذلك سموّ معانيه أدركت بلاغته وإعجازه.

* * *

لقد أخذت استمع إلى أقدام مصطفى تدنو من غرفتي، فعرفت أن وقت الرحيل قد دنا، فقمت إلى أغراضي أجمعها، وإلى شأني أرتبه، ثم ذهبت مع مصطفى إلى المسجد نطوف حول الكعبة طواف الوداع.

ومع أن أهل مكة جميعهم كانوا قد غادروها إلى منى وعرفات، فإني وجدت في المسجد بعض المصلِّين وحول الكعبة بعض الطائفين، وأهل مكة يحدثونك عن هذا ويفتخرون به، يقولون إن البيت الحرام لا يخلو في ساعة من ساعات النهار من مصلٍّ يبتهل، يتضرَّع وطائف وراكع أو ساجد قد غمرتهما التقوى وملأهما الوقار.

والواقع إنني كنت أشعر بألم في نفسي وحسرة تدبُّ في قلبي لاضطراري إلى مغادرة البلاد المقدسة التي كان ينيرها الإيمان ويغمرها الإخلاص واليقين، ولعمري ليس في العالم بلاد مثلها مليئة بالروحانيات مغمورة بالوحي والإلهام، ولئن قضى اللّه، ولم تمكنِّي مقبلات الأيام من رؤية الجزيرة كرَّة أخرى، فإن قلبي لن يبرح حاملاً لها أجمل الذكريات وأشرف الآثار.

* * *

لقد انتهيت من كل شيء، وركبت سيارتي التي أقلتني إلى جدة، ومنها ذهبت إلى سواكن لقضاء خمسة أيام في المحجر الصحي، فوجدت فيه ذلك الرجل المسلم من نياغرا الذي حمل معه أكثر خدمه على ما يظهر والذي كانت حاشيته لا تقلُّ عن خمسين شخصاً، وقد بلغني في ما بلغني عنه أنه مشى إلى البيت الحرام مشياً على قدميه من بلده في أقصى إفريقيا زيادة في الأجر، وطلب الثواب، مع أنه يضطرب في السبعين من العمر، وهو عمل يصعب على الشاب النشيط فكيف بمثل هذا الشيخ العجوز، ولكن روحانية الإسلام قوية شديدة، فهي أبداً تدفع المسلمين بعضهم إلى بعض، وتجعل منهم قوة إنسانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، مما لا يوجد مثله في العالم الحاضر.

* * *

انتهى الحجر الصحي في سواكن فذهبت منها إلى بور سودان حيث يقام فيها أيضاً حجر صحي آخر، ولكن الطبيب كان لطيفاً فسمح لي بالذهاب من الحجر بعد أيام ثلاثة حيث ركبت باخرة أقلتني إلى بور سعيد.

وقد صار الاتفاق على أن أحتفظ بغرفتي فيها حتى ذهابي إلى مرسيليا ومنها أركب الطيارة إلى محطة كرويدون الهوائية في لندن.

* * *

١٧ نيسان

لقد زرت البارحة صديقي الشيخ محمد أحمد شيخ مسجد التوفيقية، وكان المسجد غاصًّا بالمصلين، ولكنهم عرفوني حالاً

فتقدموا إليَّ بالتهنئة؛ وذهب الشيخ محمد بعد الصلاة معي إلى الباخرة مودعاً متأسفاً لفراقي، وبعد ساعة كانت الباخرة تشقُّ البحر بي في طريقها إلى مرسيليا.

* * *

٢٣ نيسان

وصلنا اليوم إلى مرسيليا، ومنها ركبت الطيارة إلى لندن، وبعد تسع ساعات أخذت الطيارة تهبط إلى الأرض، فحمدت الله على السلامة، وعلمت أنني قد أصبحت في بلادي حقًّا.

إنني الآن في غرفتي الخاصة، محاطة بكل ما يتصل بحياتي السابقة، بسبب مكين أو وثيق، ولكني كثيراً ما أفكر في حجِّي إلى الأراضي المقدسة، ويخيل إليَّ أحياناً أنني كنت في حلم من الأحلام، ولكن أوراقي أمامي تؤكد لي أنَّ حجّي لم يكن حُلُماً، وإنما كان أمراً واقعاً.

إن الزمن لن يمحوَ من ذهني وذاكرتي المشاهد التي لا أزال أحتفظ بها في قلبي؛ والتي رأيتها في مكة والمدينة، وما وقعت عليه من قوة الإيمان، وجمال الإخلاص، وحب الخير للناس والأعداء على السواء، وهي أمور كنت أحس بها وأنا في البلاد المقدسة، ثم ما توفر لي من شرف زيارة قبر الرسول، ومسجده الشريف، وحرم اللّٰه المكرم، وكعبته الطاهرة، وقيامي بكل واجبات الحج، مما كان يجعل كله في قلبي اطمئناناً لم أكن أحسه قبل اليوم أبداً.

ولعمري لقد أصبحت أشعر أنني قمت بواجبي نحو ربِّي، وإن ربِّي غفور رحيم.

* * *

فهرس المحتويات